

دعوة الحق



مجلة شهرية تعنى بالمراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

رواه البيهقي وغيره

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالحراساء الإسلامية وبشؤون النفاة والبكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الخامسة والستون - العدد 438 شعبان 1443هـ / مارس 2022م

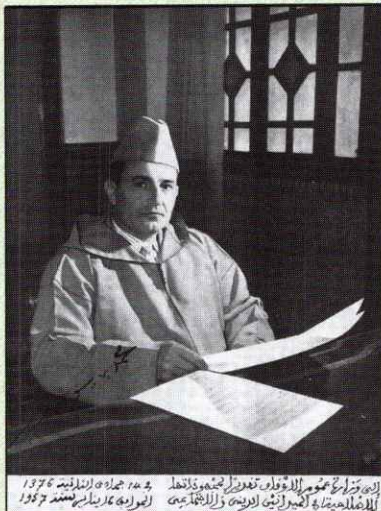


أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصفة خاصة بنامية الإصلاح الديني، كما نعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكيد العمل في
أن يلتفت حولها دُعاة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة “دعوة الحق” سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة الدعوة بمناسبة صدورها في شهر يوليو 1957



إلى وزارة عموم الإدارة في بغداد في ١٤ جمادى الأولى ١٣٧٦
الأفضل المحترم السيد مدير التربية والتعليم في بغداد

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mbai.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاکس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

ثمن العدد : 15 دھ

الخارج : 300 درهم

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

1981PE0003 : الرقم الدولي

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمنية - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده



افتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم، وصل اللهم على من بعثته قائما بأمر الدين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فما أحوج العالم اليوم وهو على حافة التدهور الأخلاقي والانحلال الروحي إلى منظومة أخلاقية، وقدوة إنسانية، تتجسد فيها خصال الخير والرحمة، والحكمة والتبصر، لا تتغافل في الأقواء، ولا تتجاذبه المصالح الدائنية، ولا تشبه الشهوات الآتية عن التعريف بالقيم الإنسانية التي نصت عليها الديانات السماوية.

والناظر في تاريخ البشرية يكاد لا يجد منظومة أشمل لعماد الأخلاق الراقية، من الشرائع التي اجتمعت في شجر النبي الرسول، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، نبي الرحمة المقداة للعالمين، لقوله تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" [الأنبياء/106]، الذي وسّته الكتب السماوية بـ "مشتهى الأمم"، أي المنتظر بشوق لإحياء القيم، وهو ما اهتم به علم الشرائع والشيم، الذي كتب الله له الذيوع والانتشار، ومنزلته من ينحدر من العبادلة الأخيار، الذين عملوا على رسم فنونه وضبط علومه ليكون للناس نبراسا يقتدى، ومنهجاً يتخذ، لقوله سبحانه: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" [الأحزاب/21].

وما أحوج الناس اليوم إلى التخلق بالشمائل الحميدة لياخذوا بها في مكارم الأقوال والأفعال، ويمتحوها بها من محاسن الأخلاق والانحلال.

لذا اختارت مجلة الدعوة الحق هذا الموضوع لتفرد به هذا العدد المتميز، بمشاركة نخبة من الباحثين المتخصصين والعلماء المبرزين، عسى أن يكون ما قدم فيه تبصرة للعالمين، ومرجعاً للباحثين، وتأسياً بسيرة سيد المرسلين، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير
د. عبد الحميد العلمي

مفالات العلم

الشماثل المحمدية دراسة منهجية وتجليات عملية

ذ. إدريس الخرشافي

كلية الشريعة بفاس.

بسم الله الرحمن الرحيم، وبعد، فهذا بحث مختصر يقصد تجلية مقام: "الشماثل المحمدية" ضمن قضايا ومباحث السيرة النبوية وبيان مفهومها الاصطلاحي وتجلياتها على واقع المخاطبين به، بدءاً بطبقة الصحابة الذين حضروا التنزيل وشهدوا أثره في واقعهم من خلال سيرته ﷺ عامة وشماثله ﷺ خاصة، وانتهاء بكل من هو معني بخطاب الشرع في عمومته وشموله.

ووسمت بحثي بـ: "الشماثل المحمدية. دراسة منهجية وتجليات عملية"؛ غير قاصد الاستيعاب، لأن محله ما صنف خصيصاً في هذا الباب.

وقد وزعت الكلام في هذا الموضوع على النقاط الآتية:

1. علاقة الشماثل المحمدية بالسيرة النبوية.
2. مفهوم الشماثل لغة واصطلاحاً.
3. الخصائص المنهجية للشماثل النبوية.
4. تجليات الشماثل النبوية على الأمة الإسلامية.
5. توصيات.

وأبدأ بالنقطة الأولى من هذا الموضوع، فأقول وبالله التوفيق، ومنه تعالى أستمد السداد في

الطريق:

1. علاقة الشئائل المحمدية بالسيرة النبوية:

تحتل: "الشئائل النبوية" موقعا متميزا ضمن قضايا ومباحث السيرة النبوية المشرفة. ذلك أن "السيرة النبوية" من حيث تعريفها وبيان ماهيتها اتخذت أشكالا عدة وأنماطا مختلفة من التعريفات والتحديدات بحسب الزاوية التي ينظر المؤلف أو الباحث إلى السيرة النبوية من خلالها.

فالسيرة النبوية من وجه أول هي: تأريخ لمختلف أطوار حياته ﷺ من الميلاد إلى الوفاة، وعلى هذا المنوال جرى غير واحد من المؤلفين في السيرة النبوية ومن أقدمهم ابن إسحاق (ت 151هـ) ومن هذب كتابه.

وهي من وجه ثان: تناول للدلائل الشاهدة على صدق نبوته ﷺ، وعلى هذا جرى الحافظ أبو نعيم (ت 430هـ) في كتابه: "دلائل النبوة".

وهي من وجه ثالث: رصد لشئائله وأخلاقه العلية ﷺ. وعلى هذا المنوال سار الحافظ الترمذي (ت 279هـ) وغيره ممن ألف في الشئائل النبوية.

وهي من وجه رابع: رصد لعلاقته ﷺ مع زوجاته رضوان الله عليهن خاصة وأهله عامة، وهديه ﷺ في تبليغ الدعوة الإسلامية وتنظيم دولة الإسلام... إلخ، وعلى هذا جرى الإمام ابن القيم (ت 751هـ).

وهي من وجه خامس: استلهام لهديه ﷺ في أعماله القتالية وتوجيهه للأنشطة العسكرية، وعلى هذا جرى من ألف في: "المغازي والسير" ومنهم موسى بن عقبة (ت 141هـ) من القدامى، ومن المحدثين أذكر كتاب: "الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية"، تأليف محمد مسعد ياقوت.

وهي من وجه سادس: استمداد لهديه ﷺ في تعامله مع الأنظمة السياسية القائمة في عصره. وعلى هذا نهج أبو عبد الله، جمال الدين ابن حديدة (ت 783هـ) في كتابه: "المصباح المضي، في كتاب النبي الأمي، ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي".

وعليه تحتل: "الشئائل النبوية" مكانا قارا وموقعا ثابتا ضمن مباحث وقضايا السيرة النبوية رواية وتصنيفا وشرحا وتدريسا، ويستشعر الدارس منا لمرويات الشئائل النبوية في مظانها

المتخصصة كأنه دارس لمرويات السيرة النبوية نفسها. وما هذا إلا لكون الشائيل المحمدية امتدادا علميا للسيرة النبوية وفرعا عنها.

2. مفهوم الشائيل لغة واصطلاحا.

لمفردة الشائيل معان كثيرة في لسان العرب ذكر منها العلامة ابن منظور الإفريقي المتوفى عام (711هـ) ما ذكر من معان واستعمالات، نقتبس منها في مقامنا هذا قوله رحمه الله تعالى: "... الشَّال الطَّبْع والجمع شَائِل... والشَّالُ الخُلُق...".¹

وتستعمل العرب لفظ الشائيل أيضا فيما يمتاز به المرء من الصفات، فيقال: هذا من شائيل فلان، وليس من شائيل فلان، قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم القادسية: "لَوْ لَا أَنِّي تَرَكْتُ أَبَا مُحَجَّنٍ فِي الْقُيُودِ لَطَنَنْتُ أَتْمًا بَعْضُ شَائِلِ أَبِي مُحَجَّنٍ".²

هذا من حيث اللغة، أما من حيث الاصطلاح فالشائيل من حيث استعمالها الاصطلاحي هي: ما كان عليه النبي ﷺ من حسن الخلق وكريم الأخلاق ورفع السجايا...

ولا تخرج عبارات من عرف الشائيل عن هذه المفردات.. وإن كان البعض منهم قد سماها في بعض الحالات "سمتا" مستوحين هذه التسمية من حديث رسول ﷺ: « السَّمْتُ الحُسْنُ وَالتَّوَدُّةُ وَالْإِقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ ».³

وتوسع غيرهم في الاصطلاح فسمى الشائيل: "هديا"، وهو صنيع الإمام ابن القيم المتوفى عام (751هـ) في كتابه: "زاد المعاد في هدي خير العباد". وسأنحو نحوه في بعض مواطن هذا البحث بإذن الله تعالى.

3. الخصائص المنهجية للشائيل النبوية.

يمكن لدارس الشائيل النبوية أن يخلص إلى مجموعة من الملاحظات بخصوص شائله ﷺ، يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- 1 - لسان العرب مادة: شمل .
- 2 - مصنف عبد الرزاق . الرواية رقم : 17077 . وللخبر تفصيل يستحسن مراجعته في محله .
- 3 - رواه الترمذي في جامعه وقال :... وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ . باب مَا جَاءَ فِي النَّأْيِ وَالْعَجَلَةِ . رقم الحديث : 2141 .

أ - تفرق الشائيل المحمدية في عمومها بين المرحلتين المكية والمدنية من السيرة النبوية.

ب - نقل الشائيل المحمدية بالأسانيد الخاضعة للتصحيح والتضعيف على غرار الأحاديث النبوية نفسها.

ج - تميز شئائله ﷺ بانقسامها إلى قسمين اثنين: قسم يجوز أن يكون محل اقتداء وتأس من قبل عموم أفراد أمته ﷺ، وهو القسم الأكبر والحيز الأعظم من هاته الشائيل.

وقسم ثان يعد مما اختص به ﷺ دون غيره من أفراد أمته، ولا يجوز أن يكون محل اقتداء: مثل وصاله ﷺ في الصيام، ووجوب قيام الليل في حقه ﷺ... إلخ.

د - انقسام التصنيف في الشائيل النبوية إلى قسمين اثنين: قسم أفرد في مصنف مستقل متمحض لهذا الغرض، كما هو الشأن بالنسبة لصنيع الإمام الترمذي رحمه الله تعالى. وقسم تناول الشائيل النبوية ضمن عموم الأحاديث النبوية الجامعة لكل أصراب وأنواع الحديث النبوي. وهو القسم الأكبر حجما والأغزر مادة، تمثله أشكال التصنيف الحديثي من صحاح وجوامع ومستدركات ومعاجم... إلخ.

4. تجليات الشائيل النبوية على الأمة الإسلامية.

وهذه هي النقطة الجوهرية في الموضوع، وهي التي تستحوذ على القسط الأكبر من الكلام، لأنها لب القضية، ومرمى من فُتحت بصيرته من البرية.

وسأقدم نماذج دالة على تجليات شئائله ﷺ التي شاهدها من شاهدها من أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، وبلغت من بلغت من أفراد أمته الذين فاتهم حضورها ومشاهدتها، ونُقلت إليهم بالأسانيد المتصلة إلى رواها الأعلون.

وهي شائيل محمدية متعددة الأبعاد، متنوعة المقاصد، مختلفة المرامي. غزيرة في بابها، نافعة في مضمونها. وسنتخب منها المشاهد الآتية منبهين على محل الشاهد فيها بإذن الله تعالى.

• تواضع النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه المؤمنين.

ومن المشاهد الدالة على هذا الخلق العظيم أنه ﷺ أخبر أصحابه بعد ربح من الزمن كبير، وبعد أن نصره الله تعالى في مواطن شتى على أعدائه ومخالفيه، ومكن له في الأرض، وجعل كلمة

المؤمنين هي العليا، بعد كل هذا يخبر النبي ﷺ أصحابه الذين لم يعرفوا شيئاً عن مراحل حياته الأولى أنه كان راعياً للغنم، مع ما في هذا العمل - في نظر وتقييم المجتمع البشري - من امتهان وابتدال.. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ. فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ⁴ لِأَهْلِ مَكَّةَ⁵.

ومحل الشاهد في هذا النص⁶ أن الصحابة وهم آنئذ بالمدينة وقد تقدم العمر برسول الله ﷺ لم يكونوا على علم بممارسة نبههم عليه الصلاة والسلام رعي الغنم في صباه، إذ لو كانوا يعلمون هذا لما أبدوا تعجبهم متسائلين: "فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟" ولو شاء عليه الصلاة والسلام أن يطوي عنهم هذه المرحلة من حياته التي ما أدركها على جهة التقريب أحد منهم لطواها. لكن النبي ﷺ أبى إلا أن يخبرهم بها لما في الإخبار بها من إبراز خلق التواضع الذي تمتع به المصطفى ﷺ.

ومن المشاهد الدالة على تمثل النبي ﷺ لهذا الخلق العظيم الحديث المخرج في الصحيح المتفق عليه عَنْ شَرِيكَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَهْلٍ فَأَنَاحَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ هُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَكِيٌّ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ. فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَكِيُّ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَجَبْتُكَ». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمَشَدُّ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا تَجِدُ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ». فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فَقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مِنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بَنِي ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ⁷.

4 - يعني كل شاة بقيراط، والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم.

5 - صحيح البخاري، كتاب الإجارة. رقم الحديث 2262.

6 - قلت: فضلا عن هذا النص نجد بين أيدينا نصوصاً أخرى تشهد لصحة ما قلناه، ومن هذا القبيل نص حدث شق صدره ﷺ وهو طفل مسترضع في بادية بني سعد. والخبر بتمامه مخرج في كتاب مسلم رحمه الله تعالى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

7 - هذه رواية الإمام البخاري للمشاهد وهي عنده في الجامع الصحيح. كتاب العلم، باب مَا جَاءَ فِي الْعِلْمِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا". رقم الرواية: 63.

محل الشاهد في هذا الحديث أن ضمام بن ثعلبة⁸ - وهو موفد على النبي ﷺ في العام التاسع من الهجرة - لم يسلم بعد ولم يسبق له أن رأى النبي ﷺ، يقول سائلا عن صاحب النبوة: "أيكم محمد؟"، وهو ﷺ في قمة مقام أعزه الله تعالى به، وأصحابه من حوله يحمونه وينصرونه.. فمن يجروا أن يخاطب مقام النبي ﷺ بما خاطبه به ضمام بن ثعلبة؟ ومن يملك أن يدخل إلى مجلس النبي ﷺ على النحو الذي دخل به ضمام بن ثعلبة؟

ما كان لكل هذا أن يحدث لولا خلق التواضع الذي تخلق به النبي ﷺ. وما كان لهذا أن يقع لولا خلق الحلم الذي تخلق به الرسول ﷺ.

وفي الحديث - فضلا عما سبق - إظهار ما كان يتمتع به الرسل والموفدون من قبل أقوامهم من حصانة ومنعة. فالرجل الموفد من قبل قومه أعرب عما في صدره بالأسلوب الذي ارتضاه من غير أن ينكر عليه أحد ما قال، ولو وقع شيء من هذا لثقل كما نُقلت أدق التفاصيل الأخرى.

• حلم النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن تجليات شمائله ﷺ حلمه بأعدائه وأعداء الدين وإن كانوا يضمرون له الكيد المتين، يشهد لهذا الحلم خبر إسلام عُمَيْرِ بْنِ وَهَبِ الْجُمَحِيِّ⁹ بعد غزوة بدر. فعن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: جَلَسَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبِ الْجُمَحِيِّ مَعَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بَعْدَ مُصَابِ أَهْلِ بَدْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْحَجْرِ يَسِيرُ وَكَانَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ شَيْطَانًا مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ، وَبِمَنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَيَلْقُونَ مِنْهُ عَنَاءً وَهُوَ بِمَكَّةَ وَكَانَ ابْنُهُ وَهْبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي أَسَارِي بَدْرٍ¹⁰... قَالَ: فَذَكَرَ أَصْحَابَ الْقَلْبِ وَمُصَابِهِمْ فَقَالَ صَفْوَانُ: قُبِحَ اللَّهُ الْعِيشَ بَعْدَ قَتْلِي بَدْرٍ. قَالَ: أَجَلَ وَاللَّهِ مَا فِي الْعِيشِ خَيْرٌ بَعْدَهُمْ، وَلَوْلَا دِينَ عَلِيٍّ لَا أَجِدُ لَهُ قَضَاءً وَعِيَالًا لَا أَدْعُ لَهُمْ شَيْئًا لِرَحَلَتِ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقَتَلَتْهُ إِنْ مَلَأَتْ عَيْنِي مِنْهُ، فَإِنْ لِي عِنْدَهُ عِلَّةٌ أَعْتَلُ بِهَا عَلَيْهِ أَقُولُ: قَدِمْتَ مِنْ أَجْلِ ابْنِي هَذَا الْأَسِيرِ¹¹. قَالَ: فَاعْتَنَمَهَا صَفْوَانُ وَقَالَ: عَلَيَّ دَيْنُكَ، أَنَا أَقْضِيهِ عَنْكَ، وَعِيَالُكَ مَعَ عِيَالِي أَوْاسِيهِمْ مَا بَقُوا، لَا يَسْعُنِي شَيْءٌ وَيَعْجِزُ عَنْهُمْ.

8 - تراجع ترجمته مفصلة في: "الإصابة في تمييز الصحابة" للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى. رقم الترجمة: 4198. 395/3.

9 - تراجع ترجمته مفصلة في: "الإصابة في تمييز الصحابة" للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى. رقم الترجمة: 6073. ج: 4 ص: 603.

10 - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَسْرَهُ رِفَاعَةُ بْنُ رَافِعٍ أَحَدَ بَنِي زُرَيْقٍ.

11 - هكذا في مغازي موسى بن عقبة. وتراجع الإصابة في ترجمة عمير بن وهب 726/4. وفي المغازي لابن إسحاق: "قَالَ لَهُ عُمَيْرٌ صَدَقْتَ وَاللَّهِ أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا دَيْنٌ عَلَيَّ لَيْسَ لَهُ عِنْدِي قَضَاءٌ وَعِيَالٌ أَخْشَى عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ بَعْدِي، لَرَكِبْتُ إِلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى أَقْتُلَهُ فَإِنْ لِي قَبْلَهُمْ عِلَّةٌ ابْنِي أَسِيرٌ فِي أَيْدِيهِمْ...".

فَقَالَ لَهُ عُمَيْرٌ: فَكُنْتُمْ شَأْنِي وَشَأْنَكَ، قَالَ أَفْعَلْ. قَالَ: ثُمَّ أَمَرَ عُمَيْرٌ بِسَيْفِهِ فَشَحَذَ لَهُ وَسَمَّ ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ. فَبَيْنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ يَوْمِ بَدْرٍ وَيَذْكُرُونَ مَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَمَا أَرَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ إِذْ نَظَرَ عُمَرُ إِلَى عُمَيْرِ بْنِ وَهَبٍ حِينَ أَنَاخَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ. فَقَالَ: هَذَا الْكَلْبُ عَدُوُّ اللَّهِ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ وَاللَّهُ مَا جَاءَ إِلَّا لِشَرٍّ وَهُوَ الَّذِي حَرَّشَ بَيْنَنَا، وَحَزَرْنَا لِلْقَوْمِ يَوْمَ بَدْرٍ. ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا عَدُوُّ اللَّهِ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ قَدْ جَاءَ مُتَوَشِّحًا سَيْفِهِ. قَالَ: فَأَدْخِلْهُ عَلَيَّ. قَالَ: فَأَقْبَلَ عُمَرُ حَتَّى أَخَذَ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ فَكَبَّهَ¹² بِهَا. وَقَالَ لِرَجَالٍ مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ: ادْخُلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاجْلِسُوا عِنْدَهُ وَاحْذَرُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْحَيْثِ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ. ثُمَّ دَخَلَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعُمَرُ أَخَذَ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ، قَالَ: أَرْسِلْهُ يَا عُمَرُ، أَدْنُ يَا عُمَيْرُ، فَدَنَا ثُمَّ قَالَ: انْعَمُوا صَبَاحًا، وَكَانَتْ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ يَا عُمَيْرُ بِالسَّلَامِ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَقَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتُ بِهَا لِحَدِيثٍ عَهْدٍ. قَالَ: فَمَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ؟ قَالَ: جِئْتُ لِهَذَا الْأَسِيرِ الَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ فَأَحْسِنُوا فِيهِ. قَالَ: فَمَا بَالُ السَّيْفِ فِي عُنُقِكَ؟ قَالَ: قَبَحَهَا اللَّهُ مِنْ سُيُوفٍ وَهَلْ أَغْنَتْ عَنَّا شَيْئًا؟ قَالَ: أَصْدُقْنِي، مَا الَّذِي جِئْتَ لَهُ؟ قَالَ: مَا جِئْتُ إِلَّا لِذَلِكَ. قَالَ: بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الْحَجْرِ، فَذَكَرْتُمَا أَصْحَابَ الْقَلِيبِ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ قُلْتَ: لَوْلَا دَيْنٌ عَلَيَّ وَعِيَالٌ عِنْدِي لَحَرَجْتُ حَتَّى أَقْتُلَ مُحَمَّدًا، فَتَحَمَّلَ لَكَ صَفْوَانُ بَدِينِكَ وَعِيَالُكَ، عَلَى أَنْ تَقْتُلَنِي لَهُ وَاللَّهِ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ. قَالَ عُمَيْرٌ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدْ كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُكَذِّبُكَ بِمَا كُنْتَ تَأْتِينَا بِهِ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ وَمَا يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَخْضُرْهُ إِلَّا أَنَا وَصَفْوَانُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ مَا أَتَاكَ بِهِ إِلَّا اللَّهُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ وَسَاقَنِي هَذَا الْمَسَاقَ ثُمَّ شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقَّهُوا أَحَاكُمُ فِي دِينِهِ. وَأَقْرَأُوهُ الْقُرْآنَ وَأَطْلِقُوا لَهُ أَسِيرَهُ فَفَعَلُوا. ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ جَاهِدًا عَلَى إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ، شَدِيدَ الْأَذَى لِمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَا أَحِبُّ أَنْ تَأْذَنَ لِي فَأَقْدَمَ مَكَّةَ، فَأَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ وَإِلَى الْإِسْلَامِ لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِيهِمْ... قَالَ: فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَحَقَ بِمَكَّةَ. وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ حِينَ خَرَجَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ، يَقُولُ:

12 - جاء في اللسان: "يقال لَبَّيْهَ أَخَذَ بِتَلْبِيئِهِ وَتَلَابِيئِهِ إِذَا جَمَعَتْ ثِيَابُهُ عِنْدَ نَحْرِهِ وَصَدْرِهِ ثُمَّ جَرَزَتْهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا جَعَلَتْ فِي عُنُقِهِ حَبْلًا أَوْ ثَوْبًا وَأَمْسَكَتْهُ بِهِ، وَالتَّلَبُّبُ مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ، وَالتَّلْبَةُ مَوْضِعُ الذَّبْحِ وَالتَّاءُ زَائِدَةٌ، وَتَلَبَّبَ الرَّجُلَانِ أَخَذَ كُلُّ مِنْهَا بِلَبَّةٍ صَاحِبِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ مُتَلَبِّبًا بِهِ الْمُتَلَبِّبُ الَّذِي تَحْزَمُ ثَوْبُهُ عِنْدَ صَدْرِهِ وَكُلٌّ مِنْ جَمْعِ ثَوْبِهِ مُتَحَزِّمًا فَقَدْ تَلَبَّبَ بِهِ. مَادَّةُ لَبٍ.

أَبَشِّرُوا بِوَقْعَةٍ تَأْتِيكُمْ الْآنَ فِي أَيَّامٍ تُنْسِيكُمْ وَقْعَةَ بَدْرٍ، وَكَانَ صَفْوَانُ يَسْأَلُ عَنْهُ الرِّكْبَانُ حَتَّى قَدِمَ رَاكِبٌ فَأَخْبَرَهُ عَنْ إِسْلَامِهِ، فَحَلَفَ أَنْ لَا يُكَلِّمَهُ أَبَدًا، وَلَا يَنْفَعُهُ بِنَفْعٍ أَبَدًا. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا قَدِمَ عُمَيْرٌ مَكَّةَ، أَقَامَ بِهَا يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ وَيُؤْذِي مَنْ خَالَفَهُ أَدَى شَدِيدًا، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ نَاسٌ كَثِيرٌ¹³.

ففي هذا الخبر من أخبار شمائله ﷺ سمو أخلاق النبي ﷺ، وحلمه على عدوه اللدود، فقد أحسن إلى عمير، وتجاوز عنه وعفا عنه مع أنه جاء ليقتله، بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عمير وقال لأصحابه: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره».

وفي هذا الخبر من الفوائد والدلالات ما لا يسمح المقام ببسطها.

• رحمته صلى الله عليه وسلم بالصغار أثناء المغازي.

فعن يزيد بن هرمرز قال: كَتَبَ نَجْدَةُ بْنُ عَامِرٍ¹⁴ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: فَشَهِدْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ حِينَ قَرَأَ كِتَابَهُ وَحِينَ كَتَبَ جَوَابَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَرَدَّ عَنْ تَنَنِ يَقَعُ¹⁵ فِيهِ مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ (...)¹⁶ وَسَأَلْتُ هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْتُلُ مِنْ صِبْيَانِ الْمُشْرِكِينَ أَحَدًا فَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَقْتُلُ مِنْهُمْ أَحَدًا وَأَنْتَ فَلَا تَقْتُلُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا عَلِمَ الْخَضِرُ مِنَ الْعَلَامِ حِينَ قَتَلَهُ..¹⁷.

قال الإمام أبو العباس القرطبي المتوفى عام 656هـ: "وَقَوْلُهُ: "إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَعْلَمُ الْخَضِرُ". يَعْنِي: أَنْ قَتَلَ الْخَضِرُ لَذَلِكَ الصَّبِي كَانَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِذَلِكَ، وَبَعْدَ أَنْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ

13 - سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام، 208/1 - 210.

14 - نجدة بن عامر الحنفي هو أحد قادة الخوارج في عهد الأمويين ولد عام 36هـ، وبويع في سنة 66هـ. استولى على اليمامة، والبحرين بعد حروب طويلة وامتد نفوذه حتى اليمن، واتخذ من القطيف قاعدة له. ثم ولي مكانه أبو فديك أحد أنصاره السابقين وهو من الخوارج أيضاً. استمر في حكمه حتى أرسل له عبد الملك بن مروان جيشاً قضى عليه عام 73هـ.

15 - قال الإمام النووي: "يعني بالنتن الفعل القبيح وكل مستقبح يقال له النتن والخبيث.. " شرح مسلم: 193/12. وقال في المفهم: "وفي الرواية الأخرى: "لولا أن يقع في أحموقه" أي: في فعل من أفعال الحمقى. يعني به: العمل على غير العلم. (المفهم 15/12). والمعنى: لولا أنني بكتابتني له أردته عن فعل أشياء قبيحة، يقع فيها إن لم أكتب ما كتبت إليه، أي لولا خوفي من وقوعه في أفعال قبيحة إن لم أكتب إليه ما كتبت إليه. فالسائل كان خارجي المذهب، وخشي ابن عباس رضي الله عنه إن لم يجبه أن يقع منه ما لا تحمد عقباه...

16 - قلت: ما بين القوسين كلام في الخطاب بين ابن عباس ونجدة بن عويمر حذفته اختصاراً وقصداً للمطلوب من إيراد نص الحديث.

17 - صحيح مسلم، باب النِّسَاءِ الْعَازِيَاتُ يُرْضَخُنَّ وَلَا يُسَهَّمْنَ وَالنَّهْيُ عَنْ قَتْلِ صِبْيَانِ أَهْلِ الْحَرْبِ. رقم الحديث: 1812.

تعالى: أن قتل ذلك الغلام مصلحة لأبويه. وهذا النوع من العلم يتعذر على السائل وغيره ممن لا يُعلمه الله بذلك، فلا يحل قتل صبي بحال من الأحوال. هذا معنى كلامه".

ومعنى هذا أن صبيان المشركين وذرائعهم لا يُقتلون بقتل آبائهم المشركين المشاركين في قتال المسلمين بذريعة أن آباءهم كانوا على الشرك، ولو تم التسليم بهذه الذريعة الفاسدة لما بقي على قيد الحياة صبيان مات آبائهم على الشرك وشرح الله صدرهم للإسلام.

ومن يُذكر هنا خالد بن الوليد رضي الله عنه فوالده الوليد بن المغيرة بن عبد الله كان من صناديد الكفر. ومات على كفره. وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه هلك والده أبو جهل على كفره يوم بدر وكان من أعتى صناديد الكفر. ومنهم عمرو بن العاص رضي الله عنه فأبوه العاصي بن وائل السهمي كان من صناديد الكفر. ومنهم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كان والده الجراح من صناديد الكفر وتعرض له يوم بدر فقتله، وفيه نزل قول ربنا سبحانه وتعالى من سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾¹⁸.

ويشهد لهذا المعنى الحديث المخرج في البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين»¹⁹. فهذا الحديث في حكم مآل أولاد المشركين بعد موتهم.. وهي مسألة خلافية.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - المتوفى عام 852هـ: "... واختلف العلماء قديما وحديثا في هذه المسألة على أقوال أحدها أنهم في مشيئة الله تعالى.. ونقله البيهقي في (الاعتقاد) عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة". قال حافظ المغرب ابن عبد البر - رحمه الله تعالى - المتوفى عام 463هـ: "... وهو

18 - الآية: 21 من سورة المجادلة. قال صاحب التحرير والتنوير (5/28): "وكسر الدال أظهر لأن السورة افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدل، وهي التي ذكرها الله بقوله: «التي تجادل في زوجها». ورأيت في نسخة من حاشية محمد الهمداني على الكشف المسماة توضيح المشكلات، بخط مؤلفها جعل علامة كسرة تحت دال المجادلة. وأما فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل "تجادل" كما عبر عنها بالتجاوز في قوله تعالى: «والله يسمع تحاوركما».

19 - باب ما قيل في أولاد المشركين. رقم الحديث: 1383.

مقتضى صنيع مالك وليس عنده في هذه المسألة شيء منصوص، إلا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار خاصة في المشيئة، والحجة فيه حديث: "الله أعلم بما كانوا عاملين"²⁰.

ومما ينصر تمثيل النبي ﷺ لخلق الرحمة ما روي عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ بعث سرية يوم حنين فقاتلوا المشركين فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاءوا قال رسول الله ﷺ: «ما حملكم على قتل الذرية؟». قالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين. قال: «أوهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها»²¹.

فالصبيان مولودون على فطرة التوحيد لله تعالى، وإنما يطراً عليهم خلاف التوحيد من قبل غيرهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..» الحديث²².

ومما يشهد لهذا الخلق أيضاً رحمته ﷺ بكبار السن والنساء في المغازي. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا وضمو غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا» إن الله يحب المحسنين²³.

فقد كان من هدي رسول الله ﷺ أن يوصي الذين يخرجون للجهاد في سبيل الله بقوله: "انطلقوا باسم الله وبالله"، يعني: معتمدين على الله متوكلين عليه مستعينين به. "وعلى ملة رسول الله"، يعني: على سنته وطريقته ومنهجه ودينه. "ولا تقتلوا شيخاً فانياً"، يعني: ليس من أهل القتال، إلا إن كان ذا رأي وخبرة في الحرب بحيث يستفيدون منه فيقتل وإن كان كبيراً للتخلص من شره.

وأما قوله: "ولا امرأة"، أي إذا لم تكن مقاتلة ولم تكن ملكة ولا ذات رأي في المحاربة. "ولا تغلوا"²⁴ وضمو غنائمكم"، أي اجمعوا غنائمكم. "وأصلحوا"، أي أموركم. "وأحسنوا"، أي فيما بينكم. «إن الله يحب المحسنين»، أي يشبههم ويكرمهم²⁵.

20 - نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، 246/3.

21 - رواه الإمام أحمد، رقم الحديث: 15588.

22 - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصل عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم الحديث: 1358.

23 - سنن أبي داود، باب في دعاء المشركين. رقم الحديث: 2616.

24 - الغلول: الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها.

25 - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. الملا علي القاري، 100/12.

وشاهد هذا الهدي النبوي في المغازي من حديث رسول الله ﷺ ما رواه البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: وَجَدْتُ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ "26.

وفي مسند الإمام أحمد عن المُرْقَعِ بْنِ صَيْفِيٍّ عَنْ جَدِّهِ رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ أَخِي حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا وَعَلَى مُقَدَّمَتِهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَمَرَّ رَبَاحٌ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ مِمَّا أَصَابَتْ الْمُقَدَّمَةُ فَوَقَفُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ خَلْقِهَا حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَأَنْفَرَجُوا عَنْهَا فَوَقَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتِقَاتِلٍ». فَقَالَ لِأَحَدِهِمْ: «الْحَقُّ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا»²⁷.²⁸

قوله ﷺ: "ما كانت هذه لتقاتل"، فإن مفهومه أنها لو قاتلت لقتلت. واتفق الجميع كما نقل ابن بطل وغيره على منع القصد إلى قتل النساء والولدان. أما النساء فلضعفهن، وأما الولدان فلقصورهم عن فعل الكفر ولما في استبقائهم جميعا من الانتفاع بهم إما بالرق أو بالفداء فيمن يجوز أن يفادى به..²⁹

وما يشهد لهذا الخلق العظيم الذي كان من تجليات الشئان المحمدي على الأمة الإسلامية رحمته ﷺ بالرهبان والمتفرغين للعبادة أثناء المغازي. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ نَجْرَانَ³⁰ عَلَى أَلْفِي حُلَّةٍ³¹ النَّصْفُ فِي صَفَرٍ وَالْبَقِيَّةُ فِي رَجَبٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَارِيَّةٌ ثَلَاثِينَ دِرْعًا وَثَلَاثِينَ فَرَسًا وَثَلَاثِينَ بَعِيرًا وَثَلَاثِينَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ السَّلَاحِ يَغْزُونَ بِهَا³² وَالْمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى يَرُدُّوَهَا عَلَيْهِمْ³³ إِنْ كَانَ بِالْيَمَنِ

26 - باب قَتْلِ النِّسَاءِ فِي الْحَرْبِ، رقم الحديث: 3015.

27 - العسيف هو الأجير.

28 - مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 16414 وصححه ابن حبان.

29 - فتح الباري، 148/6.

30 - أي نصاراهم دون غيرهم.

31 - في السنة.

32 - فيعطونها عارية.

33 - بعد الفراغ من الغزو. قَالَ الْقَاضِي الشُّوكَانِيُّ: هَذَا الْمَالُ الَّذِي وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْمَصَالِحَةُ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ جَزِيَّةٌ وَلَكِنْ مَا كَانَ مَأْخُودًا عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ يُخْتَصُّ بِذَوِي الشُّوْكَةِ فَيُؤْخَذُ ذَلِكَ الْمَقْدَارُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَلَا يَضُرُّ بِهِ الْإِمَامُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ". نقله صاحب عون المعبود، 202/8.

كَيْدٌ³⁴ أَوْ غَدْرَةٌ³⁵ عَلَى أَنْ لَا تَهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ³⁶ وَلَا يُخْرَجَ لَهُمْ قَسٌّ³⁷ وَلَا يُفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ مَا لَمْ يُحْدِثُوا حَدَثًا أَوْ يَأْكُلُوا الرِّبَا. قَالَ إِسْمَاعِيلُ: فَقَدْ أَكَلُوا الرِّبَا". قَالَ أَبُو دَاوُدَ: "إِذَا نَقَضُوا بَعْضَ مَا اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَحْدَثُوا"³⁸.

ومحل الشاهد في هذا الخبر ما جاء من بنود في كتاب الصلح لنصاري نجران: "... وَلَا يُخْرَجُ لَهُمْ قَسٌّ وَلَا يُفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ..." إنها من تجليات من وصفه ربه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾³⁹.

• وفاء النبي صلى الله عليه وسلم.

يشهد لهذا الخلق العظيم الذي جسده رسول الرحمة المهداة ﷺ ما جاء في صحيح البخاري عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ⁴⁰ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَنِ⁴¹، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»⁴².

إنه خلق الوفاء الذي يعد من تجليات الشائيل المحمدية على الأمم الإنسانية جسده الرسول ﷺ مع: "المطعم بن عدي" رغم اختلاف المعتقد. فمن مواقفه الحميدة أنه ممن مشى في نقض

34 - أي حرب.

35 - أي المعاهدون من أهل اليمن إذا غدروا، فعليهم أن يعطوا ذلك السلاح وغيرها عارية.

36 - مكان عبادتهم.

37 - القس والقسيس: ويقال قس بفتح القاف وتشديد السين وهو عالم دين النصرانية العالم العابد من رؤوس النصاري. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا﴾ [المائدة/84]. وأصل القس: تتبع الشيء وطلبه بالليل..

38 - سنن الحافظ أبي داود، باب في أَخْذِ الْجَزِيَّةِ. رقم الحديث: 3043.

39 - الآية 105. من سورة الأنبياء.

40 - رجل من قريش من بني عبد مناف، والد الصحابي جبير بن مطعم، عاش في زمن النبي محمد ﷺ، ولكنه توفي ولم يعتنق الإسلام، ورغم ذلك فإن له في نفوس المسلمين احترامًا كبيرًا، لمواقفه الداعمة للمسلمين في بداية الدعوة، فقد كان أحد الستة الذين نقضوا صحيفة المقاطعة لبني هاشم التي كُتبت وعُلقت في الكعبة، وهو الذي أجاز النبي لدى رجوعه من الطائف عندما رفضت قريش دخوله إلى مكة. ومن مناقبه أيضاً المحموده للإسلام أنه عندما كشفت قريش أمر بيعه العقبة الثانية وقامت بمطاردة المبايعين بعد أدائهم للحج، وتمكنت فعلاً من القبض على سعد بن عبادته ربطوه ودخلوا به إلى مكة، لكن المطعم بن عدي ومعه الحارث بن حرب خلصاه من أيدي القرشيين لأنه كان يجير قوافلهم المارة بالمدينة فرجع لم يمسسه سوء.

41 - النتني بنونين مفتوحتين بينهما مثناة ساكنة مقصور جمع نتن، سَمَاهُمْ نَتْنَى لِكُفْرِهِمْ. كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ كتاب النهاية في غريب الحديث. باب النون مع التاء.

42 - باب مَا مَنَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْأُسَارَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَمَّسَ. رقم الحديث: 3139.

صحيفة المقاطعة والحصار الظالمة"⁴³. ومن جميل صنيعه مع النبي ﷺ أنه لَمَّا: "أراد الدخول إلى مكة قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل على قريش وهم السبب في خروجك لتستنصر فلم تنصر؟! فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه. فسار رسول الله ﷺ إلى حراء ثم بعث إلى الأخنس بن شريق رضي الله عنه ليجيره، وكان ذلك قبل إسلامه، وليدخل ﷺ مكة في جواره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث ﷺ إلى المطعم بن عدي الذي مات على دين قومه قبل بدر بنحو سبعة أشهر يقول له: إني داخل مكة في جوارك. فأجابه إلى ذلك، فدخل ﷺ مكة، ثم تسلم المطعم بن عدي وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، فقام المطعم بن عدي على راحلته ونادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمدا فلا يؤذيه أحد منكم. ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل. فدخل ﷺ المسجد وطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله، والمطعم بن عدي وولده مطيفون به ﷺ، وأقبل أبو سفيان على المطعم فقال: إذن قد أجرنا من أجرت"⁴⁴.

ومن أياديه البيضاء على المسلمين عموما، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: "فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ بَيْعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، وَكَانَ الْغَدُ فَتَشَّتْ قُرَيْشٌ عَنِ الْخَبَرِ وَالْبَيْعَةِ فَوَجَدُوهُ حَقًّا، فَاَنْطَلَقُوا فِي طَلَبِ الْقَوْمِ، فَأَذْرَكُوا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ وَأَفْلَتَهُمْ مُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو، فَشَدُّوا يَدَيَّ سَعْدٍ إِلَى عُنُقِهِ بِنَسْعَةٍ"⁴⁵، وَكَانَ ذَا شَعْرٍ كَثِيرٍ، فَطَفِقُوا يَجِدُونَهُ بِجَمَّتِهِ"⁴⁶، وَيَصْكُونَهُ، وَيَلْكُزُونَهُ إِلَى أَنْ جَاءَ مُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ، وَالْحَارِثُ بْنُ أُمَيَّةَ وَكَانَ سَعْدٌ يُجِيرُهُمَا إِذَا قَدِمَا الْمَدِينَةَ حَتَّى أَطْلَقَاهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَخَلَّيَا سَبِيلَهُ"⁴⁷.

• خلق إسعاف المحتاج.

من تجليات شمائله ﷺ ذات الأثر في تدبير شؤون أصحابه بالأصالة وشؤون أمته بالتبع ما تناقلته المصادر المعتمدة من خبر تمكينه الغرماء من أداء ديونهم. فعن الشَّعْبِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَاهُ اسْتَشْهَدَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا، وَتَرَكَ سِتَّ بَنَاتٍ، فَلَمَّا حَضَرَ جَدَّادُ

43 - الكتاب: جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم. المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ)، المحقق: إحسان عباس. الناشر: دار المعارف - مصر. الطبعة: 1، 1900م (64/1).

44 - الكتاب: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز. المؤلف: رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي (المتوفى سنة: 1290هـ)، الناشر: دار الذخائر - القاهرة. 138/1.

45 - التسع: الشراك الذي يشد به الرحل.

46 - جُمَّةُ شَعْرِ الرَّأْسِ: مُجْتَمَعُ شَعْرِ الرَّأْسِ الْمُتَدَلِّي إِلَى شَحْمَةِ الْأُذُنِ.

47 - دلائل النبوة، 455/2.

النَّخْلَ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ وَالِدِي قَدْ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ دِينًا كَثِيرًا، وَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ يَرَاكَ الْعُرَمَاءُ. فَقَالَ: «أَذْهَبُ فَيَبْدُرُ⁴⁸ كُلُّ تَمَرٍ عَلَى نَاحِيَةٍ». فَفَعَلْتُ ثُمَّ دَعَوْتُهُ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَيْهِ كَانَتْهُمْ أَغْرُوا بِي⁴⁹ تِلْكَ السَّاعَةَ، فَلَمَّا رَأَى مَا يَصْنَعُونَ أَطَافَ حَوْلَ أَعْظَمِهَا بَيْدَرًا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ لَكَ أَصْحَابَكَ». فَمَا زَالَ يَكِيلُ هُمْ حَتَّى آدَى اللَّهُ عَنْ وَالِدِي أَمَانَتَهُ، وَأَنَا أَرْضَى أَنْ يُؤَدِّيَ اللَّهُ أَمَانَةَ وَالِدِي، وَلَا أَرْجِعَ إِلَى أَخَوَاتِي بِتَمَرَةٍ، فَسَلَّمَ اللَّهُ الْبَيَادِرَ كُلَّهَا وَحَتَّى إِنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْبَيْدَرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا لَمْ تَنْقُصْ تَمَرَةً وَاحِدَةً⁵⁰.

فها أنت ترى أن النبي ﷺ يساهم في تدبير أمور أصحابه ويجعل ﷺ جانبا من شمائله وهديه سببا في معالجة أشد أزماتهم على سير حياتهم... ولعل أشد ما يعاني الواحد منا مشكل سداد الديون وعتق الرقاب..

فهذه إذن بعض تحليلات الشئائل النبوية على الناس عموما وعلى أمة الإسلام على جهة الخصوص تكشف عن وجوه من السيرة النبوية مشرقة، وتبرز ألوانا من الهدي النبوي مورقة.. وهي جوانب في السيرة النبوية حرية بالتتبع والدراسة.

48 - بفتح الموحدة وسكون التحتانية بعدها دال مكسورة بصيغة فعل الأمر، أي اجعل كل صنف في بيدر، أي جرين يخصه.

49 - أغروا بي، يعني هيجوا بي، أي لجؤا في مُطالبتني وألجؤوا.

50 - الجامع الصحيح. كتاب الوصايا. باب قَضَاءِ الْوَصِيِّ دُيُونَ الْمَيِّتِ بِغَيْرِ مَحْضَرٍ مِنَ الْوَرَثَةِ. رقم الحديث: 4053.

فقه الشمائل من خلال كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي السبتي رحمه الله (ت 544 هـ)

ذ. عبد العزيز ديدي
كلية الآداب مكناس.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه الأمين، سيدنا محمد المبعوث رحمة
للمومنين، وقدوة للعاملين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من استن بسنتهم واقتفى أثرهم إلى يوم
الدين، أما بعد:

فلا يختلف اثنان أن عناية المغاربة بسيرة رسول الله ﷺ كانت عناية كبيرة، ترجمت لمدى حبهم
لرسول الله ﷺ، ولعل من أظهر وجوه تلك العناية ما أفردته المغاربة من مصنفات غزيرة، وتواليف
كثيرة، رصعت عمل كل الأجيال خلال مختلف القرون، فكانت تلك المصنفات كواكب ونجوما
هادية في سماء التعريف بسيرة رسول الله ﷺ، واللافت للانتباه أن هذه العناية لم تقتصر على جانب
واحد من جوانب السيرة العطرة، بل إن احتفاءهم بها شمل كل أبواب السيرة؛ فمن التأليف في باب
السيرة العامة، إلى التأليف في باب الشمائل والدلائل، إلى التأليف في باب المغازي والسير... بل
امتدت هممتهم إلى ما لا ينفك عن السيرة عادة كالتأليف في حياة الصحابة رضي الله عنهم...¹

ولئن كانت المصنفات المغربية في السيرة النبوية كثيرة، فقد أطبق بعضها الآفاق شهرة،
وصارت بحديثها الركبان يمينة ويسرة، كما هو الشأن بالنسبة لكتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى

1 - ينظر "المصنفات المغربية في السيرة النبوية ومصنفوها"، للعلامة د. محمد يسف، فقد عرض لجهود المغاربة الكبيرة في هذا الباب.
(المصنفات المغربية في السيرة النبوية ومصنفوها، د. محمد يسف، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة: 1412 هـ - 1992 م).

للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي السبتي رحمه الله (ت544هـ) الذي هَويت إليه أفئدة الشراح والمختصرين والمعلقين والمحشين وأهل النظم وغيرهم، سواء في المشرق أو المغرب، وصار واسطة عقد كتب الشَّمال والخصائص...، بل وعنوانا على المصنفات المغربية في السيرة النبوية، فلا تكاد تذكر إلا وتقرن بكتاب الشفا، الذي هو أشهر مصنفات الإمام القاضي عياض رحمه الله، حتى قيل: "لولا عياض لما عرف المغرب" و"لولا الشفا ما عرف عياض".

فهو الإمام الذي صارت مآثره في الشرق والغرب سير الشمس والقمر
وكم له من تأليف قد اشتهرت بكل قطر فسل تنبيك عن خبر²

فهو أكمل تواليف الإمام، وبه اشتهر أكثر من غيره، يقول الإمام المقري: "أما ما كمل من تواليفه -رضوان الله عليه- فمنه كتاب الشفا الذي بلغ فيه الغاية القصوى، وكان فيه لضرب الإحسان مرتشفا، وبذ فيه المؤلفين وأربى، وحاز فيه قصب السبق، وطار صيته شرقا وغربا، ونال به مؤلفه من الرحمن قربا (...) ويرحم الله القائل:

كلهم حاول الدواء ولكن ما أتى بالشفَا إلا عياض.

ولا يمتري من سمع كلامه العذب السهل المنور في وصف النبي ﷺ، أو في وصف القرآن أن تلك نفحات ربانية، ومنحة صمدانية خص الله بها هذا الإمام، وحلاه بدرها النظيم، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾³⁴.

لقد أجمع العلماء على تفرد كتاب الشفا في باب السيرة عامة، وفي جانب الشَّمال والخصائص المحمدية على وجه خاص، والمتأمل في هذا الكتاب لا يمكن أن يُخطئ نظره أن الكتاب تفرد فيه الإمام أبو الفضل عياض اليحصبي السبتي رحمه الله في منهج تناوله للشَّمال والخصائص النبوية على نحو لم يُسبق إليه، بما حلاه من الأحكام العقدية والفروع الفقهية، والتعرض لكثير من الآداب

2 - أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد المقرئ التلمساني: 12/1. (بتحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ - 1939م).

3 - الحديد: 20.

4 - أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد المقرئ التلمساني: 12/1.

والمكارم الإسلامية، فضلا عن رده لكثير من الشبه التي تعرض في طريق التعريف بها للمصطفى عليه الصلاة والسلام من حقوق، كل هذا وغيره يجعلنا أمام كتاب في فقه الشئائل وليس في باب الشئائل والخصائص المحمدية فحسب على نحو ما دأب عليه أهل هذا الفن ممن سبقوه، وبما يجعل الكتاب أصلا في بابه، وكل ما ذكر هو من الأسباب التي تهيأت لانتشار هذا الكتاب، وذيوه بين الخاصة والعامة.

ولئن كان العلماء تحدثوا قديما على أن فقه البخاري في تراجمه، وتحدث رواد السيرة في العصر الحديث عن فقه السيرة، فإن الإمام أبا الفضل القاضي عياضا رحمه الله قد ترجم في كتابه الشفاء فقها آخر؛ ذلكم المتعلق بفقه الشئائل والخصائص، وعرضه على نحو يأخذ بتلايب القلوب ليضعها في رحاب محبة المصطفى ﷺ على المنهج الصحيح⁵ الذي لا تضل فيه الأفهام ولا تزل فيه الأقدام، فأقام بالشفاء صرحا عتيذا في منهج محبة النبي ﷺ، مزج فيه بين عرض حقوق المصطفى ﷺ، وبين ما ينبني عليها من الأحكام؛ عقدية كانت أم فقهية، وانتقل فيه من مجرد عرض الأخبار المتعلقة بالشئائل المحمدية إلى ما ينبني عليها من العمل، فكان الكتاب كتابا لفقه الشئائل المحمدية من حيث ما يجب على العبد من التوقير والمحبة لرسول الله ﷺ، يقول رحمه الله في مقدمة الكتاب ملخصا منهجه فيه: "فَإِنَّكَ كَرَّرْتَ عَلَى السُّؤَالِ فِي مَجْمُوعٍ يَتَضَمَّنُ التَّعْرِيفَ بِقَدْرِ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ تَوْقِيرٍ وَإِكْرَامٍ، وَمَا حُكْمُ مَنْ لَمْ يُؤَفِّ وَاجِبَ عَظِيمِ ذَلِكَ الْقَدْرِ، أَوْ قَصَرَ فِي حَقِّ مَنْصِبِهِ الْجَلِيلِ قَلَامَةً ظُفِرَ، وَأَنْ أَجْمَعَ لَكَ مَا لَأَسْلَفْنَا وَأَيْمَنَّا فِي ذَلِكَ مِنْ مَقَالٍ، وَأُبَيِّنُهُ بِتَنْزِيلِ صُورٍ وَأَمْثَالٍ، فَأَعْلَمَ أَكْرَمَكَ اللَّهُ أَنَّكَ حَمَلْتَنِي مِنْ ذَلِكَ أَمْرًا إِمْرًا، وَأَرْهَقْتَنِي فِيْمَا نَدَبْتَنِي إِلَيْهِ عُسْرًا، وَأَرْقَيْتَنِي بِمَا كَلَّفْتَنِي مُرْتَقَى صَعْبًا، مَلَأَ قَلْبِي رُغْبًا، فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ يَسْتَدْعِي تَقْدِيرَ أَصُولٍ، وَتَحْرِيرَ فُصُولٍ، وَالْكَشْفَ عَنْ غَوَامِضَ وَدَقَائِقَ، مِنْ عِلْمِ الْحَقَائِقِ، مِمَّا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ وَيُضَافُ إِلَيْهِ، أَوْ يَمْتَنِعُ أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَعْرِفَةَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ وَالرَّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةَ، وَالْمُحَبَّةَ وَالْخَلَّةَ وَخَصَائِصَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ الْعَلِيَّةِ، وَهَهْنَا مَهَامُهُ فَيُحْ تَحَارُ فِيهَا الْقَطَا، وَتَقْصُرُ بِهَا الْخُطَا، وَمَجَاهِلُ تَضِلُّ فِيهَا الْأَحْلَامُ إِنْ لَمْ تَهْتَدِ بِعِلْمِ عِلْمٍ وَنَظَرٍ سَدِيدٍ وَمَدَاحِضُ تَزِلُّ بِهَا الْأَقْدَامُ إِنْ لَمْ تَعْتَمِدْ عَلَى تَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ وَتَأْيِيدٍ، لَكِنِّي لِمَا رَجَوْتُهُ لِي وَلَكَ

5 - لا خلاف بين العلماء على تميز منهج القاضي عياض رحمه الله في "الشفاء"، وإن كان بعضهم قد انتقد عليه جزئيات ومسائل في الكتاب خاصة فيما يتعلق بحكم من سب الرسول صلى الله عليه وسلم.

فِي هَذَا السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، مِنْ نَوَالٍ وَثَوَابٍ، بِتَعْرِيفِ قَدْرِهِ الْجَسِيمِ، وَخُلُقِهِ الْعَظِيمِ، وَبَيَانِ خَصَائِصِهِ الَّتِي لَمْ تَجْتَمِعْ قَبْلُ فِي مَخْلُوقٍ، وَمَا يُدَانُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ حَقِّهِ الَّذِي هُوَ أَزْفَعُ الْحَقُوقِ، ﴿لَيْسْتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾⁷6.

وبهذا تفرد الإمام القاضي عياض رحمه الله بهذا المنهج، وحاز فيه فضل السبق، ولسان الصدق في التنبيه على ما يجب للمصطفى من جليل الحقوق، قال ابن فرحون في الديباج: "كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ أبدع فيه كل الإبداع وسلم له أكفأؤه كفايته فيه ولم ينازعه أحد من الانفراد به ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه وأنصفوا في الاستفادة منه وحمله الناس عنه وطارت نسخه شرقاً وغرباً"⁸.

ولا يماري كل من تأمل أبواب الكتاب أن الملكة الفقهية، والصنعة الحديثية للإمام العلم أبي الفضل عياض رحمه الله كان لهما كبير الأثر فيما انتهى إليه في كتابه الشفا من حسن نظم معانيه، وتناسق ألفاظه ومبانيه.

• أثر الصنعة الفقهية في منهج الإمام القاضي عياض في عرض أبواب الكتاب.

عرض الإمام القاضي عياض رحمه الله لكتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى في أربعة أقسام متضمنة لعشرة أبواب، وقد جعل القسمين الأولين كالمقدمات للمهدات للقسم الثالث الذي بسط فيه لب ما يتعلق بهذه الشمائل والمناقب من الفقه والأحكام، ليتوجه بقسم رابع خصصه لبيان تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سببه صلى الله عليه وسلم، قال في ذلك: "ولما نويت تقريبه، ودرجت تبويبه، ومهدت تأصيله، وخلصت تفصيله، وانتحيت حصره وتحصيله، ترجمته بـ (الشفَا بتعريف حقوق المصطفى)، وحصرْتُ الكلام فيه في أقسام أربعة:

القسم الأول: في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قولاً وفعلاً. (...)

القسم الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام. (...)

6 - المدثر: 31.

7 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 15/1-16. بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى: 1433هـ-2002م.

8 - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون: 2/ 48-49. بتحقيق محمد الأحمدى أبو النور دار التراث للطبع والنشر القاهرة، 2011م.

القسم الثالث: فيما يستحيل في حقه، وما يجوز عليه شرعاً، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه (...) وهذا القسم - أكرمك الله - هو سر الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات والدلائل على ما نوره فيه من النكت البينات، وهو الحاكم على ما بعده، والمنجز من غرض هذا التأليف وعده، وعند التقصي لموعده، والتفصي عن عهده، يشرق صدر العدو اللعين، ويشرق قلب المؤمن باليقين، وتلأ أنواره جوانح صدره ويقدر العاقل النبي حق قدره. (...)

القسم الرابع: في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سبه ﷺ. (...)

وبتمامها ينتجز الكتاب، وتتم الأقسام والأبواب، وتلوح في غرة الإيذان لمعة منيرة، وفي تاج التراجم درة خطيرة، تزيج كل لبس، وتوضح كل تخمين وحدس، وتشفي صدور قوم مؤمنين، وتصعد بالحق، وتعرض عن الجاهلين، وبالله تعالى - لا إله سواه - أستعين⁹.

إن هذه الأقسام وما ينضوي تحتها من الأبواب والفصول لتدل الناظر لأول وهلة فضلاً عن المتمعن فيها أن القاضي عياضاً رحمه الله سلك مسلك ربط الشائيل المحمدية والخصائص النبوية بالحقوق المتعلقة بذمة المكلفين، في قوالب من الأحكام الشرعية التي يمتزج فيها العقدي بالفقهي، وبهذا يفصح الإمام رحمه الله عن منهج فريد في تناول فن السيرة عموماً وباب الشائيل والخصائص المحمدية على وجه خاص، ليخرجه من دائرة الأخبار المجردة إلى فقه ما يتعلق بها من الأحكام كما هو مبين فيما سبق عرضه في أقسام وأبواب الكتاب آنفاً، وما من شك أن الصناعة الفقهية التي ملك ناصيتها هذا الإمام العلم مما أسعفه في أن يفتق عن نواة هذا المنهج الفريد في تناول السيرة في شق الشائيل المحمدية منها، ويُسفر عن وجه آخر من الكتابة في هذا الفن لا يخالف أحد في أنه قد نثر فيه بذور التجديد، ونفخ فيه روح الإبداع وما رضي فيه بمحض التقليد.

ولم يكن هذا المسلك الذي ارتضاه الإمام القاضي عياض في الشفاء سهل المورد، بل كان مرتقاه صعباً، لما يقتضيه هذا المهيع الفريد من ربط الفروع بالأصول فيما يجب أو يجوز أو يمتنع في حق النبي ﷺ، مما يتبلغ به لنيل محبته واتباع هديه وسنته وطريقته، وفي ذلك قال رحمه الله: "فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ

9 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 16/1-17-18.

يَسْتَدْعِي تَقْدِيرَ أَصُولٍ، وَتَحْرِيرَ فُصُولٍ، وَالْكَشْفَ عَنْ غَوَامِصَ وَدَقَائِقَ، مِنْ عِلْمِ الْحَقَائِقِ، مِمَّا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ وَيُضَافُ إِلَيْهِ، أَوْ يَمْتَنِعُ أَوْ يُجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَعْرِفَةَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ وَالرَّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةَ، وَالْمَحَبَّةَ وَالْخِلَّةَ وَخَصَائِصَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ الْعَلِيَّةِ، وَهَهُنَا مَهَامُهُ فَيُحْ تَحَارُّ فِيهَا الْقَطَا، وَتَقْصُرُ بِهَا الْخُطَا، وَمَجَاهِلُ تَضِلُّ فِيهَا الْأَحْلَامُ إِنْ لَمْ تَهْتَدِ بِعِلْمٍ عِلْمٍ وَنَظَرٍ سَدِيدٍ وَمَدَاحِصُ تَزُلُّ بِهَا الْأَقْدَامُ إِنْ لَمْ تَعْتَمِدْ عَلَى تَوْفِيقِ مِنَ اللَّهِ وَتَأْيِيدٍ، لَكِنِّي لَمَّا رَجَوْتُهُ لِي وَلَكَ فِي هَذَا السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، مِنْ نَوَالٍ وَثَوَابٍ، بِتَعْرِيفِ قَدْرِهِ الْجَسِيمِ، وَخُلُقِهِ الْعَظِيمِ، وَبَيَانِ خَصَائِصِهِ الَّتِي لَمْ تَجْتَمِعْ قَبْلُ فِي مَخْلُوقٍ، وَمَا يُدَانُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ حَقِّهِ الَّذِي هُوَ أَرْفَعُ الْحُقُوقِ¹⁰.

• المعالم المنهجية الكبرى في فقه الشئائل عند الإمام القاضي عياض رحمه الله من خلال كتاب الشفاء.

سلك الإمام القاضي عياض رحمه الله مسلكا فريدا تبلغ به إلى فقه الشئائل والخصائص على نحو لم يسبق إليه، ويمكن تجلية أهم المعالم المنهجية الكبرى في فقه الشئائل عند الإمام القاضي عياض رحمه الله في كتابه الشفاء على النحو الآتي:

- ربطه فقه الشئائل بأبواب العقيدة وتأسيسه على أصول الإيمان.

من المعالم الكبرى في فقه الشئائل عند الإمام القاضي عياض رحمه الله في كتابه الشفاء ربطه المكين ووصله المتين بين فقه الشئائل ومختلف أبواب العقيدة خاصة ما يتعلق منها بأصول الإيمان، حيث جعلها المنطلق في هذا الفقه المتعلق بباب الشئائل، وهو أمر لا يمكن أن تُخطئه العين، إذ هو أول ما يطالع الناظر في كتابه، وهو نظر منه سديد، واختيار منه رشيد؛ إذ لا يمكن أن تثمر محبة رسول الله ﷺ في القلوب، ولا أن تحفظ حقوقه بين العباد ما لم يعرفوا أن لذلك علائق ووشائج بأصل العقيدة، ولذلك جعله صاحب الشفاء أصلا لما سيأتي بعده، وبهذا يكون رحمه الله قد قصد إلى استثمار الأثر العملي للعقيدة وأصول الإيمان في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ. وقد أفصحت تراجم الكتاب وعناوين أبوابه وفصوله عن هذا المكنون، وكشفت عنه كل الظنون، فابتدأ ذلك بقسم "تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قولا وفعلا"، ليجعل ذلك أصلا لثبوت نبوته وصدق رسالته ﷺ، قال رحمه الله: "لا خفاء على من مارس شيئا من العلم، أو خص بأدنى لمحة من فهم، بتعظيم الله

تعالى قدر نبينا عليه الصلاة والسلام، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضب لإمام¹¹، وتنويهه من عظيم قدره بما تكل عنه الألسنة والأقلام:

فمنها ما صرح به الله تعالى في كتابه، ونبه به على جليل نصابه، وأثنى عليه من أخلاقه وآدابه، وحض العباد على التزامه وتقليد إيجابه، فكان جل جلاله هو الذي تفضل وأولى، ثم طهر وزكى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءا وعودا والحمد أولى وأخرى.

ومنها ما أبرزه للعيان من خلقه على أتم وجوه الكمال والجلال، وتخصيصه بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة، التي شاهدها من عاصره ورآها، ومن أدركه وعلمها علم يقين، ومن جاء بعده حتى انتهى علم ذلك إلينا، وفاضت أنواره علينا، صلى الله عليه وسلم كثيرا¹².

ثم شفع ذلك بالقسم الثاني المتعلق بما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ، غير أنه شيد أساسه على بعد عقدي محض، فالباب الأول منه جعله في "فرض الإيمان به ﷺ ووجوب طاعته واتباع سنته"، قال رحمه الله: "والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله، فإذا اجتمع التصديق به بالقلب، والنطق بالشهادة بذلك اللسان، ثم الإيمان به والتصديق له كما ورد في الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»¹³¹⁴. والشواهد في هذا السياق كثيرة، وإنما القصد التدليل على أن البعد العقدي حاضر في منهج فقه الشئائل عند الإمام القاضي عياض رحمه الله في الشفاء، ولا يخفى ما لهذا البعد من الأثر البالغ، والفضل السابغ، في تعريف العباد بحقوق المصطفى ﷺ، وأن ذلك لا يتعلق بمحض معرفة تلك الحقوق؛ بل إن ذلك ممتد إلى صلب العقيدة التي يدين بها المسلم ربه.

11 - وقع في بعض النسخ "لا تنضب لزمام".

12 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 18/1 - 19.

13 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، برقم: 25.

14 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 4/2.

- ربطه فقه الشرائع ببعض فروع الفقه مما له تعلق بأفعال المكلفين.

كثيرة هي الأحكام الفقهية التي أوردها الإمام القاضي عياض رحمه الله في كتابه الشفاء، مما له تعلق بحقوق المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد أضحت الأحكام الفقهية عنده صبغة تطبع الكتاب وتبين على بعض أبوابه وفصوله، حتى إن الباحث ليتمكن الوقوف على ما في "الشفاء" من الفقه الذي نقل فيه القاضي عياض رحمه الله أقوال السادة المالكية، وفتاويهم التي لها تعلق بحقوق المصطفى مما يدخل في أفعال المكلفين ويتوجه إليهم به الخطاب الشرعي تكليفاً، بمنهج فريد لم يسبق إليه، من حيث الربط بين حقوق المصطفى وما يتعلق بها من فروع الفقه عملاً، في بيان واضح لما يتعلق بباب الشرائع والخصائص من الأحكام الفقهية، وهو دليل على ما ذكرناه من أن الإمام القاضي عياضاً تفرد بهذا المنهج وفتق عن نواته.

ومن روائع ما خطته يمين القاضي عياض في سياق بيانه لبعض حقوق المصطفى وما تستوجبه من التوقير، وما يترتب عن الإخلال بها من التعزير قوله: "ومن إعظامه وإكباره صلى الله عليه وسلم إعظام جميع أسبابه وإكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة ومعاهده وما لمسه ﷺ أو عرف به، وقد أفتى مالك فيمن قال: (تربة المدينة ردية): يضرب ثلاثين دِرَّةً، وأمر بحبس، وكان له قدر، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه، تربة دفن فيها النبي ﷺ يزعم أنها غير طيبة! وفي الصحيح أنه قال ﷺ في المدينة: (مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ)¹⁵16".

ومن الباب كذلك ما أورده رحمه الله في حكم ميراث من قُتل بسبب النبي ﷺ وغسله والصلاة عليه، فأورد أقوال الفقهاء على اختلافها، كما بين ما يراه راجحاً في المسألة، قال: "اختلف العلماء في ميراث من قُتل بسبب النبي ﷺ، فذهب سحنون إلى أنه لجماعة المسلمين من قبل أن شتم النبي ﷺ كفر يشبه كفر الزندقة. وقال أصبغ: ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مُسْتَسِرّاً بذلك، وإن كان مُظْهِراً له مستهلاً به فميراثه للمسلمين، ويقتل على كل حال ولا يستتاب. وقال أبو الحسن القاسبي: إن قتل وهو منكر للشهادة عليه فالحكم في ميراثه على ما أظهره من إقراره؛ يعني لورثته، والقتل حد ثبت

15 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن، برقم: 1870.

16 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 42/2.

عليه ليس من الميراث في شيء. وكذلك لو أقر بالسب وأظهر التوبة لقتل، إذ هو حده. وحكمه في ميراثه، وسائر أحكامه حكم الإسلام. ولو أقر بالسب، وتمادى عليه، وأبى التوبة منه، فقتل على ذلك كان كافراً، وميراثه للمسلمين، ولا يغسل ولا يصلى عليه، ولا يكفن وتستر عورته، ويوارى كما يفعل بالكفار. وقول الشيخ أبي الحسن في المجاهر المتماذي: بين لا يمكن الخلاف فيه، لأنه كافر مرتد غير تائب مقلع. وهو مثل قول أصبغ، وكذلك في كتاب ابن سحنون في الزنديق يتماذى على قوله، ومثله لابن القاسم في العتبية وجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره مثله. قال ابن القاسم: وحكمه حكم المرتد لا يرثه ورثته من المسلمين، ولا من أهل الدين الذي ارتد إليه، ولا تجوز وصاياه ولا عتقه، وقاله أصبغ، قتل على ذلك أو مات عليه. وقال أبو محمد بن أبي زيد: وإنما يختلف في ميراث الزنديق الذي يستهل بالتوبة، فلا تقبل منه، فأما المتماذى فلا خلاف أنه لا يورث. وقال أبو محمد فيمن سب الله تعالى ثم مات ولم تعدل عليه بينة، أو لم تقبل: إنه يصلى عليه. وروى أصبغ عن ابن القاسم في كتاب ابن حبيب فيمن كذب برسول الله ﷺ، وأعلن ديناً مما يفارق به الإسلام - أن ميراثه للمسلمين. وقال بقول مالك: إن ميراث المرتد للمسلمين، ولا ترثه ورثته - ربيعة، والشافعي، وأبو ثور، وابن أبي ليلى، واختلف فيه عن أحمد. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وابن المسيب، والحسن، والشعبي، وعمر بن عبد العزيز، والحكم، والأوزاعي، والليث، وإسحاق، وأبو حنيفة: ترثه ورثته من المسلمين. وقيل ذلك فيما كسبه قبل ارتداده، وما يكسبه في الارتداد للمسلمين¹⁷.

قال القاضي أبو الفضل: "وتفصيل أبي الحسن في باقي جوابه حسن بين، وهو على رأي أصبغ، وخلاف قول سحنون، واختلافهما على قول مالك في ميراث الزنديق، فمرة ورثه ورثته من المسلمين قامت بذلك بينة فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة. وقاله أصبغ، ومحمد بن مسلمة، وغير واحد من أصحابه، لأنه مظهر للإسلام بإنكاره أو توبته، وحكمه حكم المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. وروى ابن نافع عنه في العتبية، وكتاب محمد أن ميراثه لجماعة المسلمين، لأن ماله تبع لدمه. وقال به أيضاً جماعة من أصحابه، وقاله أشهب، والمغيرة، وعبد الملك، ومحمد، وسحنون، وذهب ابن القاسم في العتبية إلى أنه إن اعترف بما شهد عليه به وتاب فقتل فلا يورث. وإن لم يقر

17 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 203/2-205.

حتى قتل أو مات ورث. قال: وكذلك كل من أسر كفوفاً فإنهم يتوارثون بوراثة الإسلام. وسئل أبو القاسم ابن الكاتب عن النصراني يسب النبي ﷺ فيقتل، هل يرثه أهل دينه أم المسلمون؟ فأجاب بأنه للمسلمين ليس على جهة الميراث، لأنه لا توارث بين أهل ملتين، ولكن لأنه من فيئهم، لنقضه العهد، وهذا معنى قوله واختصاره¹⁸.

لقد كانت الصبغة الفقهية التي حل بها الإمام القاضي عياض كتاب "الشفاء" من خلال ربط بعض حقوق المصطفى ﷺ بما يتعلق بها من الأحكام الفقهية التي دَوَّنَهَا السادة المالكية في أمهات كتبهم، وتناقلوها عن أئمة الفتوى في مذهبهم، إحدى المعالم الجلية في منهج فقه الشئائل عند القاضي عياض رحمه الله، ولا يخفى ما في هذا المنهج من التفرد، الذي جدد به هذا الإمام منهج تناول باب الشئائل، خاصة وأنه أطال النفس الفقهي في بعض المسائل التي لها تعلق بباب الحقوق النبوية والتي يتوجه بها الخطاب الشرعي للمكلفين، فنجدته يستقري أقوال علماء المذهب، ويبين أحيانا رجحان بعضها من خلال قوة دليله.

- دفعه التعارض الحاصل بين بعض الأخبار فيما له تعلق بالفقه الصحيح للشئائل المحمدية والخصائص النبوية.

من المعالم المنهجية الكبرى في فقه الشئائل عند الإمام القاضي عياض رحمه الله في الشفاء ما يرتبط بدفعه لبعض ما يوهم ظاهره التعارض من الأخبار في جانب فقه الشئائل مما له تعلق بمختلف الحديث، وقد ساعده في ذلك مكانته من علم الحديث وفقهه، كيف لا وقد كان كما وصفه ابن فرحون في الديباج: "إمام وقته في الحديث وعلومه"¹⁹، فكان لابد من بيان وجوه تأويل ما اختلفت فيه الأحاديث والآثار بظاهرها على منهج يفضي إلى دفع تعارضها الظاهر المؤثر في انتظامها مع أصول مقررة بصريح الكتاب وصحيح السنة.

ومن القضايا التي سلك فيها الإمام القاضي عياض هذا المسلك؛ ما يتعلق بالآثار الواردة في أفضليته عليه الصلاة والسلام على باقي الأنبياء؛ فبعدما قرر رحمه الله دليل القرآن وصحيح الأثر وإجماع الأمة أفضلية رسول الله ﷺ على سائر الأنبياء والرسول، أورد الأحاديث المتعلقة بالنهي عن

18 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 203/2-205.

19 - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون: 47/2.

تفضيله ﷺ، ثم ذكر وجوه التأويل المختلفة التي تعامل بها العلماء مع هذا الأمر الذي تعارضت بشأنه الآثار ظاهراً، قال في ذلك: "فإن قلت: إذا تقرر من دليل القرآن، وصحيح الأثر، وإجماع الأمة كونه أكرم البشر، وأفضل الأنبياء، فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل؟ كقوله: فيما حدثنا الأسدي، قال: حدثنا السمرقندي، حدثنا الفارسي، حدثنا الجلودى، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة: سمعت أبا العالية يقول: حدثني ابن عم نبيكم ﷺ؛ يعني ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: (مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)²⁰. وفي غير هذا الطريق عن أبي هريرة قال - يعني رسول الله ﷺ: ما ينبغي لعبد... الحديث. وفي حديث أبي هريرة - في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه رجل من الأنصار، وقال: تقول ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: (لا تفضلوا بين الأنبياء). وفي رواية: (لا تخيروني على موسى)، فذكر الحديث. وفيه: (ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى). وعن أبي هريرة: (مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ)²¹. وعن ابن مسعود: (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)²²، وفي حديثه الآخر: فجاءه صلى الله عليه وسلم رجل، فقال له: يا خير البرية، فقال: (ذاك إبراهيم...) ²³. فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات:

أحدها: أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل، إذ يحتاج إلى توقيف، وأن من فضل بلا علم فقد كذب. وكذلك قوله: لا أقول إن أحداً أفضل منه - لا يقتضي تفضيله هو، وإنما هو في الظاهر كف عن التفضيل.

الوجه الثاني: أنه قاله ﷺ على طريق التواضع، ونفي التكبر والعجب، وهذا لا يسلم من الاعتراض.

20 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن، برقم: 4630.

21 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن، برقم: 4805.

22 - أخرجه بلفظ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ»، الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن، برقم: 3412.

23 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل، برقم: 6287، ونص الحديث: عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا خير البرية. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ذاك إبراهيم عليه السلام».

الوجه الثالث: ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقص بعضهم، أو الغض منه، لا سيما في جهة يونس عليه السلام، إذ أخبر الله عنه بما أخبر لئلا يقع في نفس من لا يعلم منه بذلك غضاضة وانحطاط من رتبته الرفيعة، إذ قال تعالى عنه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾²⁴. ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾²⁵، فَرَبَّمَا يُحْيِلُ لِمَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ حَاطِطَتُهُ بِذَلِكَ.

الوجه الرابع: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص، والكرامات، والرتب، والألطف، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور آخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل، ومنهم أولو عزم من الرسل، ومنهم من رُفِعَ مكاناً عليّاً، ومنهم من أوتي الحكم صبيّاً، وأوتي بعضهم الزبر، وبعضهم البيئات، ومنهم من كلم الله، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾²⁶. وقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾²⁷. قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أبهر وأشهر، أو تكون أمته أذكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأطهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته، واختصاصه من كلام، أو خُلة أو رُؤية أو ما شاء الله من اللطافة والتخف ولايته واختصاصه، وقد روي أن النبي ﷺ قال: «إن للنبوة أثقلاً، وإن يونس تفسخ منها تفسخ الربع»²⁸. فحفظ رسول الله ﷺ موضع الفتنة، من أوهام من يسبق إليه بسببها حرج في نبوته، أو قدح في اصطفاؤه، وحط عن رتبته، ووهن في عصمته، شفقة منه ﷺ على أمته. وقد يتوجه على هذا الترتيب، وجه خامس، وهو أن يكون (أنا) راجعاً إلى القائل نفسه، أي لا

24 - سورة الصفات، الآية 140.

25 - سورة الأنبياء، الآية 86.

26 - سورة الإسراء، الآية 55.

27 - سورة البقرة، الآية 251.

28 - الربع ما يحمل به الشيء الثقيل ليوضع فوق ظهر الدواب، قال ابن منظور: "الربع إشالة الحجر ورُفَعَهُ لإظهار القوة. والمربعة خشبية قصيرة يُرْفَعُ بها العدل يأخذ رجلان بطرفيها فيحملان الحمل ويضعانه على ظهر البعير. وقال الأزهري: هي عصا تحمل بها الأثقال حتى توضع على ظهر الدواب. وقيل: كل شيء رُفِعَ به شيء مربعة، وقد رابعه، تقول منه: رَبَعْتُ الحِمْلَ إذا أدخلتها تحته وأخذت أنت بطرفيها وصاحبك بطرفيها الآخر ثم رَفَعْتَهُ على البعير". لسان العرب، لابن منظور، فصل العين مادة (ربع)، دار صادر - بيروت الطبعة الأولى: 2010.

يظن أحد- وإن بلغ من الذكاء والعصمة والطهارة، ما بلغ- أنه خير من يونس، لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وإن تلك الأقدار لم تحط بها حبة خردل ولا أدنى²⁹.

- دفعه لبعض الشبه القاذحة في محبة النبي صلى الله عليه وسلم.

لم يقتصر جهد الإمام القاضي عياض رحمه الله على تقرير بعض الفروع الفقهية المتعلقة بباب الشرائع، بل انتقل إلى دفع بعض الشبه الواردة عليها مما يمكن أن يقدح في منهج تلقيها على المهيح الصحيح، وهو منهج طبع عمله في بعض من الأبواب، فكان يأتي على تقرير ما يدحض كل شبهة، وبيان وهن حجة صاحبها، وفي مثل هذا توج كلامه في بعض المسائل بقوله: "وها أنا أذكر نكتته أذيل بها هذا الفصل وأختم بها هذا القسم وأزيح الإشكال بها فيما تقدم عن كل ضعيف الوهم سقيم الفهم تخلصه من مهاوي التشبيه وتزحزحه عن شبه التمويه"³⁰. وقال في موضع آخر: "فقد بان لك الغرض، وسقط بما حررناه شبهة المعارض، وبالله التوفيق، وهو المستعان لا إله إلا هو".

- تحقيق القول فيما قد تختلف فيه الأنظار.

من المعالم المنهجية في فقه الشرائع عند الإمام أبي الفضل القاضي عياض رحمه الله ما رصع به بعض مسائل كتابه من وجوه التحقيقات المختلفة لكثير من المسائل التي قد تختلف فيها الأنظار، ويحار فيها النظر مما له تعلق بفقه الشرائع سواء في نزوعاتها العقدية أو الفقهية العملية، وهي (أي تلك التحقيقات) مترجمة بلا شك لعلو كعب الرجل، ورسوخ قدمه في ربطها بأصولها، وصولاً إلى تحرير القول فيها، خاصة في قضايا صرح فيها الإمام بأن السابقين لم يكن لهم فيها قول فيُنقل، أو تفصيل عليه يُعَوَّل، وفي مثل هذا قال: "وقد سمرت فيه عن نكت تستغرب وتستبدع، وكرعت في مشارب من التحقيق لم يورد لها قبل في أكثر التصانيف مشرع، وأودعته غير ما فصل، وددت لو وجدت من بسط قبلي الكلام فيه، أو مقتدى يفيدني عن كتابه أو فيه، لأكتفي بما أرويه عما أرويه"³¹.

29 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 147/1-149.

30 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 160/1.

31 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: 228/2.

خاتمة:

لقد تبين من خلال ما سبق ذكره أن كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي السبتي رحمه الله لم يكن كتابا في الشئائل والخصائص وحسب، بل إن الكتاب يخط منهجا قويا لفقه تلك الشئائل، ولبعض ما يتعلق بها من العقائد، وما يدخل تحتها من الأحكام الفقهية التي لها تعلق بأفعال المكلفين، ولم يخل الكتاب من كثير من الترجيحات الفقهية، والتحقيقات العلمية التي أفصح عنها الإمام القاضي عياض رحمه في مختلف أبواب الكتاب وفصوله، بما يجعل منهجه فريدا في عرض كتاب الشفاء، وبما يشي بأن هذا العمل يعد تجديدا في منهج كتابة السيرة عامة والشئائل والخصائص تحديدا، كما يدل على أن مثل هذا المسلك الذي انتهجه الإمام لا يقتحمه إلا من رسخت في الفقه قدمه وعلا في فهم دلائل الشريعة علمه، فرحمه الله رحمة واسعة.

إضاءات من مشكاة الشمائل المحمدية من خلال "الشفاء" لعياض و"المحرر الوجيز" لابن عطية

ذ. عبد الهادي البياض

جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس.

الشمائل جمع شميلة، وهي جماع "الخصال الحميدة، والطبائع الحسنة"¹. فالأمر يتمحور على طهارة النفس ومكارم الأخلاق، والمتأمل في الهدي النبوي يرى أن مقاصد دعوته ملخصة في سر رسالة المصطفى بقوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"². وذهب الملا شارح الشفاء إلى أن الشمائل جمع شمال بالكسر وهو الخلق بالضم والمراد بها أخلاقه الباطنة، وصفاته الظاهرة من نحو كرمه وجوده³.

وتتعدد الأخلاق بتعدد طبائع النفوس الصادرة عنها، فالنفس الأمانة بالسوء تصدر عنها أفعال منكرة وذميمة، والنفس المؤمنة المطمئنة تفرز أخلاقا حسنة محمودة، أما النفس اللوامة فهي تتذبذب بين تيارات متضاربة، وتتجاذبها نوازع الخير والشر. فالأولى تحتاج إلى إعادة تأهيلها وترويضها على عناصر الخير في الاعتقاد والسلوك أقوالا وأفعالا لإخراج صاحبها من دائرة الرذيلة إلى فضاء الفضيلة. والنفس المطمئنة ربيت على عين خالقها فلا تصدر عنها سوى الأخلاق الحسنة في التصرفات والمعاملات وإتيان الطاعات وكريم القربات. فصارت بذلك مطمحا يصبو إلى تمثلها كل مسلم، وبالتالي كان رسول الله ﷺ أكمل أنموذج للشمائل وكريم الأخلاق، يستشف ذلك من ثناء الحق سبحانه وتعالى على نبيه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾⁴.

1 - أحمد نكري، دستور العلماء، 223/2.

2 - الطبراني، المعجم الأوسط، 74/7.

3 - الملا علي الفاري الهروي الحنفي (ت. 1014هـ)، شرح الشفاء للقاضي عياض، ضبطه وصححه عبد الله محمد الخليلي، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ/2001م، 44/1.

4 - سورة القلم، الآية: 4.

قال ابن حجر العسقلاني: "حسن الخلق تحصيل الفضائل وترك الرذائل". وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن يغضب بغضبه ويرضى برضاه. وتفصيله أنه ﷺ كان يتصف بكل صفة حميدة مذكورة فيه، ويحْتَنَبُ عن كل خصلة ذميمة مسطورة فيه⁵. وعلق السهروردي على هذا الحديث بقوله: "في قول عائشة رضي الله عنها رمز غامض وإيحاء خفي إلى الأخلاق الربانية فاحتشمت الحضرة الإلهية أن تقول كان متخلقا بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن هذا بأن خلقه القرآن، استحياء من سبحات الجلال، وستر للجمال، بلطف المقال، لوفور عقلها، وكمال أديها وفضلها"⁶. وسنعمد في رصد شمائل النبي على ما جاء في المحرر الوجيز من إشارات فريدة في بابها، حيث جمع ابن عطية في تفسيره المذكور بين المأثور والمعقول، فهو يوظف ما رواه الصحابة من أحاديث في تفسير آي الذكر الحكيم دون عنايته بالأسانيد في الغالب⁷. وهذا ما سنحاول رتقه من خلال الانفتاح على كتب السيرة والحديث لتسليط الضوء على خبايا شمائله لاستلهام الدروس والعبر التربوية اللازمة لتوازن العمران البشري.

- مخالطة الناس بانبساط وانشراح

عدد الله عز وجل على نبيه ﷺ نعمه عليه في أن شرح صدره للنبوة⁸، والانشراح بمعنى الانفساح: وقد ورد: هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، ومن علاماته التجاني عن الدنيا والإقبال على الآخرة. وذهب الجمهور إلى أن شرح الصدر هو تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه. وقال ابن عباس: هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عنه في وقت صغره، وفي وقت الإسراء. ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ الوزر وهو الثقل الذي كان يحير رسول الله قبل المبعث، فوضع الله تعالى عنه ذلك الثقل بنبوته وإرساله. قال المحاسبي: إنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل، وهي صغائر مغفورة لهممهم بها وتحسرهم عليها، ﴿وأنقض﴾ معناه جعله نقضا، أي هزيعا من الثقل ﴿ورفعنا لك ذرك﴾ معناه نوهنا باسمك، والمقصود من هذا التعدد فلا تكثر بأذى

5 - علي بن سلطان محمد القاري، جمع الوسائل في شرح الشئائل، 445.

6 - فيض القدير، 170/5.

7 - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت. 546هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ/2001م، 19/1.

8 - ﴿ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك﴾. سورة الشرح، الآيات: 1-2-3-4.

قريش، فإن الذي أكرمك بهذه النعم سيظفرك بهم، ثم قوى رجاءه بقوله: ﴿إن مع العسر يسرا﴾، أي ما تراه من الأذى فرج يأتي، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: "لن يغلب عسر يسرين". ثم أمر تعالى نبيه إذا فرغ من شغل من أشغال النبوة والعبادة أن ينصب، والنصب التعب، وقال ابن عباس: المعنى ﴿إذا فرغت﴾ من فرضك ﴿فانصب﴾ في النفل عبادة لربك، ﴿وإلى ربك فارغب﴾ أمر بالتوكل على الله تعالى وصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه⁹.

وتجلى انشراح صدره ﷺ في بسط المحيا وكمال الصدق وتحمل الأذى من مخالطته لأصناف الخلق، فقد كان أوسع الناس صدرا كما وصفه علي كرم الله وجهه، وأصدق الناس لهجة وبيانا، وأكرمهم عشرة وصحبة. وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا برحمته وشفقته على الخلق. لذلك أجمل القاضي عياض حسن الخلق بقوله: "هو مخالطة الناس بالجميل"¹⁰. وأحيانا كان مكوث بعض الناس إثر دعوتهم إلى بيت النبوة لحضور مناسبة أو وليمة يسبب حرجا للنبي، ومع ذلك لم يجزع، فنزل الوحي ليخفف عنه ثقل هذا الأذى، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيء إلا أن يوذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستانسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبيء فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتهم من متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾¹¹.

تضمنت هذه الآية الأدب في أمر الطعام، وسببها حسب جمهور المفسرين أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش أولم عليها فدعا الناس، فلما طعموا قعد نفر في طائفة من البيت فثقل على رسول الله ﷺ مكانهم فخرج ليخرجوا لخروجه، ومر على حجر نسائه ثم عاد فوجدهم في مكانهم وزينب في البيت معهم، فلما دخل وراءهم انصرف فخرجوا عند ذلك، قال أنس بن مالك: فأعلمته بانصرافهم، فجاء، فلما وصل ﷺ الحجرة أرخى الستر بيني وبينه ودخل ونزلت الآية بسبب ذلك¹².

9 - المحرر الوجيز، م. س، 496/5-497-498.

10 - شرح النووي على صحيح مسلم، 78/15.

11 - سورة الأحزاب، الآية: 53.

12 - المحرر الوجيز، م. س، 395/4.

- الأناة والحياء

كان النبي ﷺ أشد الناس حياء، إذ الحياء رقة تعتري وجه الإنسان الحيي عموماً، قال أبو سعيد الخدري: "كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه"¹³. وكان النبي ﷺ إذا كره شيئاً عرفه الصحابة في وجهه فالصحابة كانوا يمكنون في بيته مستأنسين لتجاذب أطراف الحديث وهو يستحيي من إخراجهم مع أن هذا السلوك كان يؤذيه كما سبقت الإشارة إليه. وكان من حياته أنه لا يثبت بصره في وجه أحد، وأنه كان يكتفي عما اضطره الكلام إليه مما يكره، بمعنى أنه كان يلوح ولا يصرح تخلقاً بأخلاق ربه في هذا الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿فاتوا حرثكم أنى شئتم﴾¹⁴.

وكان ﷺ "كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة"، أي كثير التفكير في ملكوت الله، ولا يتكلم إلا إذا دعت حاجة شرعية أو علمية أو ضرورية. و"مجلسه مجلس حكم، وحياء وخير، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤنب فيه الحرم"، وكلها ملكات وشائيل حميدة، فيه صفاء وتؤدة تمنع مما لا يليق فعله والخوض فيه. ويتجنب أصحابه رفع أصواتهم فيه إكراماً وتادباً مع النبي الكريم، ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾¹⁵. وكان ﷺ "يخطو تكفوفاً، ويمشي هونا كأنها ينحط من صيب" ومشي فيه سكينه ووقار مشيا متواضعاً ومعتدلاً لا تبخر فيه ولا خيلاء¹⁶.

- محمد ﷺ رحمة للعالمين

شكلت رسالة نبينا محمد ﷺ خاتمة لنزول الوحي، وجعلها ربنا مشكاة مضيئة تنجلي بهديها عتمة العالم، فكانت مضامينها وما زالت رحمة للعالمين، ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾¹⁷. وبحسب ابن عطية يحتمل الكلام أن يكون معناه: (وما أرسلناك للعالمين إلا رحمة)، أي هو رحمة في نفسه ﷺ، وتوضح هذا المعنى تنمة الآية في قوله تعالى: ﴿فإن تولَّوا فقل آذنتكم على سواء﴾¹⁸.

13 - صحيح مسلم، 1809/4-1810. صحيح البخاري، 513/10.

14 - شرح الشفاء، م.س، 268/1-269-271.

15 - سورة الحجرات، الآية: 2.

16 - شرح الشفاء، م.س، 309/1-310.

17 - سورة الأنبياء، الآية، 107.

18 - سورة الأنبياء، الآية، 108.

ومعناه عرفتكم بنذارتي وأردت أن تشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله تعالى لتجنب عقابه بحيث لا يعرف وقت ذلك وهذا أهول وأخوف¹⁹.

ومن خلال مدارس فصول سيرة رسول الله ﷺ يسترجع المسلم في كل مصر وفي كل عصر مواقف خالدة في مناهضة الظلم ونبد العبودية وسيادة روح الأخوة والمساواة. ذلك أن رسالته تتضمن سعادة الناس وصلاح معاشهم ومعادهم إن اقتدوا به واتبعوه.

كما يسمح التأمل في شمائل المصطفى ﷺ المفعمة بالرحمة وحسن الظن والتسامح والتعايش والتعاون والإيثار ونكران الذات ...، بعث روح جديدة في القيم الحقيقية التي تؤلف بين المسلم وغيره من بني نوعه؛ في عالم مثخن بالحروب والأوبئة، والمشاحنات والضغائن، مصداقا لقوله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)²⁰. ويقدم خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه شهادة من وحي المعاش اليومي في خدمة المصطفى بقوله: "خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما سبني سبة، ولا ضربني ضربة قط، ولا عبس في وجهي، ولا أمرني بأمر قط فتوانيت فعاتبني عليه، فإن عاتبني أحد من أهله، قال: دعوه فلو قدر شيء كان".

شكلت بعثة محمد ﷺ رحمة مهداة لا إلى قريش، ولكن لكل العرب حسب ابن عطية، ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا﴾²¹: نقل أمة من ضلال الجاهلية إلى نور الإسلام وهدايتها، وأخرجهم من ضلالة عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. والآية فيها تعديد نعم الله عليهم بسبب رسالته الجامعة للهدى والرحمة لهم وللعالمين، بحيث جاء بالتزكية لتطهيرهم من الشرك بالتوحيد، من خلال تضافر الوحي؛ القرآن والسنة النبوية²².

وتؤكد هذه الآية من سورة الأحزاب رافة رسول الله ﷺ بالمومنين، قال تعالى: ﴿النبىء أولى بالمومنين من أنفسهم﴾²³. حيث أزال الله تعالى بهذه الآية أحكاما كانت في صدر الإسلام، منها: أن

19 - المحرر الوجيز، م.س، 4/103.

20 - رواه أحمد في مسنده، 2/381.

21 - سورة الجمعة، الآية: 2.

22 - المحرر الوجيز، م.س، 5/306.

23 - سورة الأحزاب، الآية: 6.

النبي ﷺ كان لا يصلي على ميت عليه دين، فذكر أنه أولى بالمومنين. وقال ﷺ حين نزلت هذه الآية: "أنا أولى بالمومنين من أنفسهم، من ترك مالا فلورثته، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعلي، أنا وليه، اقرؤوا إن شئتم: ﴿النبيء أولى بالمومنين من أنفسهم﴾" ²⁴.

ولعل الرحمة التي امتن بها الله على العالمين ببعثة نبينا برسالة الإسلام هي استجابة الله لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام بأن يبعث في آل إسماعيل رسولا منهم يدعو إلى دين الله بحكمة ورحمة، وبالتعليم والتزكية: ﴿رَبَّنَا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ²⁵. فاستجاب الحق تبارك وتعالى لطلب نبيه إبراهيم، جاء هذا في الخطاب الموجه إلى أمته ²⁶ ﷺ بقوله: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ ²⁷، بل وجعل خصائص دعوة الرسول الكريم منة امتن بها على جمهرة المومنين بقوله: ﴿لقد منَّ الله على المومنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ ²⁸. هدفه من تلاوة الآيات تطهيركم من الكفر وتركيتكم بالطاعة وبما أوتي من حكمة الفقه في الدين ²⁹. ومن منن الله وفضله على المومنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم، وهذا يوجب الأئس به لأنه من جنسهم ويتكلم لغتهم، وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته، لذا تدور مقاصد دعوته فيهم على تطهيرهم من دنس الكفر والمعاصي، بالقرآن والسنة ³⁰.

وكانت الرحمة لا تفارقه في دعوته حيث التزم تبليغ الأمانة والرسالة إلى الناس كافة، ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ ³¹، ومضمونها

24 - المحرر الوجيز، م.س، 370/4.

25 - سورة البقرة، الآية: 128.

26 - المحرر الوجيز، م.س، 226/1.

27 - سورة البقرة، الآية: 150.

28 - سورة آل عمران، الآية: 164.

29 - المحرر الوجيز، م.س، 226/1.

30 - المحرر الوجيز، م.س، 537/1.

31 - سورة يوسف، الآية: 108.

أن سبيله منحصر في الدعوة إلى توحيد الله تعالى بعلم وبصيرة ورحمة ونبذ ما سواه وعدم الإشراك به، وعلى هذا الأساس فوظيفته الدعوية تعد بالتبع وظيفة كل من آمن به بنفس المنهج من البيان بالحجة والدليل الساطع. قل إن دعوة الإسلام عقيدة وشريعة، هي منهاجي وستي ومسلكي، أدعو إلى الحق واليقين على بصيرة وسبحان الله تنزيها له جل وعلا في سياق التبرؤ من الشرك³².

- الصفح واللين والاستشارة

قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم﴾³³. اللفظ سيء الخلق، بمعنى: "الجافي في منطقه ومقاطعه، والفظاظة الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلًا"³⁴، وأما الغليظ فهو الجافي الطبع، في قلبه فظاظة أي قسوة، ﴿لانفضوا من حولك﴾ أي لتفرقوا من عندك. ومعنى الآية: "التفريع لجميع من أخل بموقعه يوم أحد بمركزه، فكانوا يستحقون الملام منك، وألا تلين لهم، ولكن رحم الله جميعكم، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم، وبعثك لتتم محاسن الأخلاق، وهم بأن لينك لهم، وجعلت بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم وأنت ﴿لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾، وتفرقوا عنك، لكن صفة أخلاق المصطفى تنافي الجفاء وتؤكد حسن المعاشرة في القول والفعل، كما أن بعثته رحمة للعباد فلا يتصور أن يكون غليظ القلب، لما تعنيه من تجهم الوجه وقلة الإشفاق والرحمة. وأما الانفضاض ليس من طبعه ولا منهجه أن يكون داعي فرقة وبعثرة، بل تشهد سيرته بأنه موحد الأمة ومؤلفها بالتوحيد³⁵.

ومن خلال بيان الصفات النقيضة التي جاءت بعد "لو"، وجه رب العزة نبيه الكريم بقوله: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾³⁶، من خلال بناء تدريجي تتضح فيه قسمة الرحمة والهداية، بحيث يعفو عنهم ويصفح فيما يتعلق بحقوقه عليهم، ثم يستغفر لهم فإذا تحقق فيهم ذلك كانوا أهلاً للمشورة في عزائم الأحكام³⁷، وهذه إشارة تربوية لعدم الاستبداد بالرأي لذلك

32 - المحرر الوجيز، م.س، 285/3-286.

33 - سورة آل عمران، الآية: 159.

34 - المحرر الوجيز، م.س، 533/1.

35 - المحرر الوجيز، م.س، 533/1.

36 - سورة آل عمران، الآية: 159.

37 - المحرر الوجيز، م.س، 534/1.

مدح الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾³⁸. وباستثناء قوانين الشرع القائمة على الحلال والحرام، فالرسول لم يتوان في استشارة الصحابة ففي غزوة بدر قال: أشيروا علي أيها الناس، وذلك فيما يتعلق بأمور الحرب والبعوث ونحوه³⁹. وهذا يوجب على المومن محبته أكثر من نفسه، والتصديق برسالاته ﷺ والإيمان بوحدانية الله ووجوب اتباع سنته والاهتداء بهديه ﴿ لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة ﴾⁴⁰.

كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول: "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم"⁴¹. فكان ذلك سببا لنزول قوله تعالى: ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾⁴². فيه توقيف على أن الأمر كله لله، وهذا التوقيف يقتضي أنه كان بسبب من جهة النبي ﷺ وما تعرض له يوم أحد من ابتلاء مما ذكر، وكأن النبي ﷺ مالت نفسه إلى الدعاء عليهم باللعنة والاستئصال، فاستأذن أن يدعو عليهم، فنزلت هذه الآية بسبب هذه المقالة، ومفادها أن عواقب الأمور بيد الله سبحانه، فامض أنت لشأنك ودم على الدعاء إلى ربك. والمعنى أنه ليس يتحصل له ﷺ من أمر الكفار شيء يؤمله إلا أن يتوب الله عليهم فيسلموا، فيرى محمد ﷺ أمله فيهم في الدنيا، أو يعذبهم في الدنيا أو في الآخرة⁴³. وتنطوي الآية على معنى توجيهي للدعوة بالرحمة لا بالاستئصال.

– الصدق والأمانة والاستقامة

إن الصدق من فضائل الشيم والخصال الحميدة، لأنه يحمل صاحبه على البر والخير، والبر دليل إلى الجنة، وخلافه البهتان والكذب، ويقودان صاحبهما إلى الفجور وعذاب الجحيم، وأثنى رب العزة على نبيه وعلى من بادر إلى تصديقه من أصحابه بقوله: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾⁴⁴. قال ابن عباس: ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ هو محمد ﷺ ﴿ وصدق به ﴾ هم أهل القرآن

38 – سورة الشورى، الآية: 35.

39 – المحرر الوجيز، م.س، 1/534.

40 – سورة الأحزاب، الآية: 21.

41 – صحيح مسلم، 3/1417.

42 – سورة آل عمران، الآية: 128.

43 – المحرر الوجيز، م.س، 1/505-506.

44 – سورة الزمر، الآية: 32.

الذين استحقوا به اسم الصدق ﴿أولئك هم المتقون﴾ الذين يتقون الشرك. ثم استأنف في المنحى نفسه إلى حدود قوله تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ فيه تقوية لنفس النبي عليه السلام، لأن قريشاً كانت خوفته من الأصنام، وقالوا: يا محمد أنت تسبها ونخاف أن تصيبك بجنون أو علة⁴⁵.

وللصدق ثمرات تربوية واجتماعية واقتصادية ونفسية، منها ترسيخ الإيمان وزيادة البركة في الرزق وبعث السكينة في النفس لقوله ﷺ: "الصدق طمأنينة والكذب ريبة"⁴⁶. إلى جانب ذلك عد الصدق من دعائم الاستقامة فكان المخاطب الأول بها الصادق الأمين لقوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾⁴⁷، أمرت: مخاطبة تعظيم، ﴿ومن﴾ معطوف على الضمير في قوله: ﴿فاستقم﴾ وحسن ذلك دون أن يؤكد بقوله ﴿كما أمرت﴾، ولذلك أمر الله نبيه بالاستقامة وهو عليها إنما هو أمر بالدوام والثبوت، والخطاب للنبي ولأصحابه ولسائر أمته بالمعنى، ﴿فاستقم كما أمرت﴾، وأثر عنه عليه السلام قوله بهذا الصدد: شيتني هود وأخواتها، إشارة إلى ما فيها مما حل بالأمم السابقة، فكان حذر على هذه الأمة مثل ذلك شبيه عليه السلام. ﴿ولا تطغوا﴾ ولا تتجاوزوا حدود الله⁴⁸.

وكما عرف رسول الله ﷺ بالصدق، اشتهر كذلك بالأمانة لما جبل عليه من الأخلاق الحسنة، خصوصاً وأنه كان يدعى في قومه قبل اصطفائه للرسالة بالصادق الأمين، وفي هذا الصدد قدم أبو جهل ألد أعداء دعوته شهادة فيه بقوله: "إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به"، بمعنى أنه واثق في صدق الرسول الكريم مقابل ذلك أعرب عن معاداته لما جاء به من الهدى فأنزل الله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ وإنما أبو جهل وأمثاله من صنديد المعاندين مجبولون على النكران والجحود. وإذا رجعنا إلى بداية الآية نفهم أن النبي عليه السلام كان يحزن لرميه بالتهمة الباطلة فقال: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾⁴⁹. ومما كان يضايق النبي الكريم قولهم: إنه كذاب، مفتر، ساحر، ومجنون ومسحور، فيواسيه الله تعالى بأن لا تحزن ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ تكديبا يضررك، بل يعلمون صدقك ولكنهم يجحدون عنادا منهم وظلما،

45 - المحرر الوجيز، م.س، 531/4-532.

46 - رواه الترمذي.

47 - سورة هود، الآية: 112.

48 - المحرر الوجيز، م.س، 211/3-212.

49 - سورة الأنعام، الآية: 34.

وهذه الآية تخص الطائفة التي كانت تقول -ومنهم أبو جهل-: إنا لنعلم أن محمدا صادق ولكن إذا آمنا به فضلنا بنو هاشم بالنبوة فنحن لا نؤمن به أبدا، فهذا معنى الجحود وهو الإنكار بعد معرفة وهو ضد الإقرار⁵⁰. وفي هذا المنحى نوه المولى عز وجل بأخلاقه ونفى عنه ادعاءات المعاندين من أعيان الملأ من قريش الذين اتهموه بالجنون فقال: ﴿ن والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾⁵¹ وبذلك جاء النفي بعد القسم تزكية لنبيه ﷺ، ثم أثابه على تحمله وصبره بالرفع من قدره، فقال سبحانه: ﴿وانك لعلی خلق عظیم﴾⁵²، فجاء التنويه في سياق المدح⁵³.

ولما اختلف سادة قريش فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود في موضعه، وبلغ الأمر بينهم إلى حد الاقتتال، اتفقوا أن أول داخل عليهم يكون له شرف وضعه في مكانه، فدخل عليهم رسول الله ﷺ فقالوا مجتمعين: هذا محمد هذا الأمين قد رضينا به، فبسط رداءه ووضع الحجر عليه، وأشار على المتنازعين أن يأخذ كل رئيس قوم بطرف من الرداء، وهو أخذ من تحته، وثبتوه في موضعه⁵⁴.

- الوفاء بالعهد وصلة الرحم

ولما كانت العهود من القيم الراسخة والأخلاق النبيلة، فقد حض القرآن على الوفاء بالعهد لقوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾⁵⁵، وغالبا ما اهتم النبي ﷺ بالوفاء بالعهد وصلة رحمه وقرباته، فقد ورد في الصحيحين أن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما غرت على امرأة -من نساء النبي- ما غرت على خديجة، لما كنت أسمعها يذكرها -ويثني ثناء جميلا عليها-، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها -أي يرسلها- هدية إلى خللائها -أي صديقاتها لكل منهن قطعة- واستأذنت عليه أختها -وهي هالة بنت خويلد- فارتاح لها -وأكرمها-، ودخلت عليه امرأة -من صديقاتها- فهش لها -أي فرح بزيارتها- وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت، قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان"⁵⁶.

50 - المحرر الوجيز، م.س، 285/2-286.

51 - سورة القلم، الآيتان: 1-2.

52 - سورة القلم، الآية: 4.

53 - المحرر الوجيز، م.س، 346/5.

54 - شرح الشفاء، م.س، 203/1.

55 - سورة النحل، الآية: 91.

56 - شرح الشفاء، م.س، 288/1-289.

ومن صور الوفاء بالعهد ما رواه أبو قتادة قال: وفد وفد للنجاشي، فقام النبي ﷺ يخدمهم - تواضعا لربه وإرشادا لأمتة - فقال له أصحابه نكفيك، فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين - حين هاجروا إليهم - وإني أحب أن أكافئهم⁵⁷.

- الجود والسخاء والكرم

الجود سهولة الإنفاق على الأقارب والفقراء بسخاء، وتجنب اكتساب ما لا يحمد، والجود إعطاء الموجود وانتظار المفقود والاعتماد على المعبود، ويقال: من أعطى البعض فهو سخي، ومن بذل الأكثر فهو جواد، ومن أعطى الكل فهو كريم⁵⁸. وفي هذا السياق قال الحسن البصري: "حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه"⁵⁹.

ولما كان الكرم خلقا مكتسبا بالتربية ومحاكاة الأعمال الصالحة شرعت الزكاة وندب المسلمون لبذل الصدقات والإنفاق في سبيل الله طمعا في الفوز بالجنة. وضرب نبينا محمد ﷺ أروع الأمثلة في الإنفاق والبذل والعطاء من غير من ولا أذى لحمل أصحابه ومن بعدهم كل المسلمين على اكتساب شيم الكرم والسخاء من خلال ترويض النفس على التخلص من دواعي الشح ونوازع البخل لقوله تعالى: ﴿ومن يوق شَحِّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾⁶⁰. وفي هذا الصدد ضرب الرسول الكريم أروع الأمثلة في البذل والعطاء بكرم وسخاء، وفي هذا الإطار "قدم على النبي سبعون ألف درهم وهو أكثر مال أتى به قط، فوضع على حصير، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منه ﷺ"، على حد قول هارون بن رباب⁶¹.

وفي هذا المنوال يطلعنا علي كرم الله وجهه عن سخائه وكريم صفاته، فقال: "كان النبي ﷺ أجود الناس كفا، وأجراً الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم بذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبه، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ"⁶².

57 - شرح الشفاء، م.س، 291/1.

58 - شرح الشفاء، م.س، 255/1.

59 - مدارج السالكين، 307/2.

60 - سورة الحشر، الآية: 9.

61 - البخاري، 455/10.

62 - البيهقي، الدلائل، 269/1. جامع الترمذي، 599/5.

وبالتالي يسمو المسلم بسخائه إلى نقاء سريرته وطهارة نفسه مصداقا لقوله جل وعلا: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾⁶³. قال سهل بن سعد: "كان رسول الله ﷺ حيا لا يسأل شيئا إلا أعطى"⁶⁴. روى الشيخان أن خديجة قالت له ﷺ: "أبشر، فو الله لا يحزنك الله، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل - أي تحمل مؤونة عيال العاجز عنها - وتكسب المعدوم - أي تعطي كل فقير محروم - وتقري الضيف - أي تطعمهم - وتعين الخلق على نوائب الحق"⁶⁵.

خوطف النبي ﷺ بحث أمته على صلة الأرحام من الأهل والأقارب، والإحسان إلى المساكين والفقراء وبني السبيل أخص كما تعضده آية الصدقة، وألحق بهذه الآية ما يتعين له من صلة الرحم، وسد الخلة والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه، وحذر سبحانه وتعالى من التشبه بالشیطان في الإفساد، ومنه تبذير المال في غير وجوهه، ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا. ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا. إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾⁶⁶.

ولله در ابن عباس وابن مسعود فإنهما قالا: التبذير الإنفاق في غير حق، ولذلك نهى عز وجل: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة﴾ عن است فراغ الوجد فيما يطرأ أولا من سؤال المومنين ليلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لئلا يضيع المنفق عيالا ونحوه، وهذه من آيات فقه الحال، ولا يبين حكمها إلا باعتبار شخص من الناس، ومن كلام الحكمة: "ما رأيت قط سرفا إلا ومعه حق مضيع"⁶⁷. ﴿إن ربك يبسط﴾: والمعنى كن أنت يا محمد على ما رسم لك من الاقتصاد ولا يهملك فقر من تراه كذلك، فإنه بمرأى من الله ومسمع وبمشيئته، ويعلم مصلحة قوم من الفقر ومصلحة آخرين من الغنى⁶⁸.

وكان رسول الله ﷺ، بهذه الأخلاق الكريمة والشهائل الحميدة لا يبارى، وفي هذا الصدد روى البخاري أنه "ما سئل رسول الله ﷺ، عن شيء في - باب العطاء - فقال: لا". وكان كل من

63 - سورة التوبة، الآية: 104.

64 - سنن الدارمي، 1/36. / صحيح مسلم، 4/1806.

65 - شرح الشفاء، م.س، 1/293.

66 - سورة الإسراء، الآيات: 26-30.

67 - المحرر الوجيز، م.س، 3/451.

68 - المحرر الوجيز، م.س، 3/451.

سأله ﷺ حاجة وهي عنده لا يرده إلا بها، ولا يقول: لا، وإن لم تكن عنده يدعو له مثل قولنا: رزقنا الله وإياكم، ولهذا قال الفرزدق:

ما قال لا قط إلا في تشهده *** لولا التشهد كانت لاؤه نعم⁶⁹.

وإذا لم يتيسر له ما ينفق كان يعد السائل بالعطاء كما في قوله تعالى: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا﴾⁷⁰. وتتضمن هذه الآية أمرا صريحا من الله تعالى لنبه ﷺ إذا سأله أحد ممن تقدم ذكره من الفقراء والمساكين وبني السبيل، فلم يجد عنده ما يعطيه فقابله رسول الله ﷺ بالإعراض تأدبا منه في أن لا يرده تصریحا، وانتظار الرزق من الله تعالى يأتي فيعطيه منه، أن يكون يؤنس بالقول الميسور، وهو الذي فيه الترجية بفضل الله تعالى، والتأنيس بالميعاد الحسن والدعاء في توسعة الله تبارك وتعالى وعطائه، وروي أنه عليه السلام كان يقول بعد نزول هذه الآية، إذا لم يكن عنده ما يعطي: «يرزقنا الله وإياكم من فضله»، فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر، وتدل كذلك على الأجر والثواب⁷¹.

ويعضد هذا الخلق ما رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ "كان أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة"، بصيغة المجهول دلالة على عموم المنفعة والسرعة⁷². وعموما كان رسول الله ﷺ أجود الناس وأكرمهم، فكان إذا وجد جاد بما يشفي غلة السائل، لقول عائشة رضي الله عنها: "كان النبي ﷺ لا يسأل شيئا فيمنعه"⁷³.

- التواضع وخفض الجناح

تخبرنا زيجات النبي ﷺ في بيته عن تواضع حاله ومساعدتهن في أعباء البيت، فقد سئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: "كان في مهنة أهله، فإذا

69 - ديوان الفرزدق، 89/1.

70 - سورة الإسراء، الآية: 28.

71 - المحرر الوجيز، م.س، 3/449-450.

72 - الشفاء، م.س، 1/257.

73 - البخاري، 455/10.

حضرت الصلاة قام فصل⁷⁴. ثم قالت في موضع آخر: "كان يعمل كعمل أحدكم في بيته يخطط ثوبه ويخصف نعله"⁷⁵.

وكان النبي ﷺ يخفض جناحه للأطفال ويشبع رغباتهم في اللعب كما تدل على ذلك أخباره مع حفيديه الحسن والحسين. وبالمثل كان يفشي السلام عليهم إذا صادفهم في طريقه، فقد روى ثابت بن أنس، أن النبي ﷺ مر بصبيان وسلم عليهم⁷⁶. ومن كريم شمائله ممازحة الصغار بما يحبون، فقد روى أنس بن مالك وهو حاضر وشاهد بقوله: "كان رسول الله ﷺ يجيء إلينا وأخ لي صغير فيقول: يا أبا عمير ما فعل النغير؟"⁷⁷. (النغير طائر صغير ذو منقار أحمر - وأبو عمير هو: ابن أبي طلحة الأنصاري أخو أنس بن مالك لأمه، أمهما أم سليم بنت ملحان، وأبو عمير مات صغيرا في حياة النبي ﷺ). وبالمثل كان يمازح كبار السن ولا يقول إلا حقا، فقد "دخل النبي ﷺ على عائشة رضي الله عنها وعندها عجوز فقال: من هذه؟ فقالت: هي من أخوالي، فقال النبي ﷺ: إن العجز لا يدخل الجنة، فشق ذلك على المرأة، فلما دخل النبي ﷺ قالت له عائشة، فقال: إن الله عز وجل ينشئهم خلقا غير خلقهن"⁷⁸.

ومن جميل تواضعه اهتمامه بالأرامل، "كان النبي ﷺ لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين يقضي له حاجته"⁷⁹. وبالمثل كان يألف ويؤلف، ويستقبل جميع الفئات الاجتماعية بعناية واهتمام، ويشهد لتواضعه ولين جانبه قول أنس بن مالك: "ما رأيت رجلا قط أخذ بيد رسول الله ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو ينزع يده"⁸⁰. كما أسهم في تسكين روع من هرع إليه مستنجدا به، وفي هذا المضمار "أتى النبي ﷺ رجل يكلمه فأرعد، فقال: هون عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"⁸¹.

74 - صحيح البخاري، 461/10.

75 - مسند الإمام أحمد، 106/6.

76 - صحيح مسلم، 1708/4.

77 - صحيح البخاري، 526/10. صحيح مسلم، 1692/3.

78 - رواه الترمذي في الشهاب المحمدية، 111.

79 - البيهقي، دلائل النبوة، 329/1.

80 - البيهقي، دلائل النبوة، 320/1.

81 - الحاكم، المستدرک، 47/3.

كان التواضع من شيم المصطفى ﷺ، فكان ﷺ يجلس بين ظهرائي أصحابه فيجيء الغريب ولا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبوا أن يجعلوا دكانا (أي دكة) من طين يجلس عليه ويجلسوا لجانيه⁸². والتواضع نقيض العجرفة والتكبر، وهو قيمة أخلاقية رفيعة، حيث أمر الله عز وجل نبيه أن يتحلّى بها فقال: ﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المومنين﴾⁸³. وبما أنه مبعوث إلى قومه وللعالمين كان يخاطب الناس بدعوته وحاله ويعيش بتواضع معهم في واقع حياتهم بأفراحهم وأتراحهم.

كما لم يستسغ البعض من بني قومه تواضعه في حياته ومعاشه ومسكنه، فأثبت الله سياق تعجبهم بقولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾⁸⁴. موضعا عز وجل أن لرسوله ﷺ كل الصفات التي لا تميزه عن البشر يعيش بينهم، ويأكل ويدخل الأسواق كغيره من الآدميين، في إشارة إلى تواضعه، والرد على تعجب البعض من أن اصطفاة للنبوّة، وتشريفه بالرسالة يجعلانه يعيش مميزا كالمملوك عن سواد الأمة، بل تواصل مع فئات المجتمع المختلفة، وبلغ الرسالة دون تمييز، وأوذي من قبل المخالفين، وجاهد في الميدان وحاور الحيارى وفافوض الأعداء... بخلق التواضع والرحمة⁸⁵.

ومن الصور الخالدة لتواضعه ما رواه البراء بقوله: "رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق ينقل التراب حتى وارى الغبار شعر صدره، ورأيت النبي ﷺ يرتجز يوم الخندق وهم يحفرونه وهو ينقل التراب حتى وارى جلدة بطنه"⁸⁶.

وفي هذا المنحى من الله على أمة محمد بتكليف رسول بمواصفات وأخلاق عالية - توجب تعظيمه وطاعته، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمومنين رؤوف رحيم﴾⁸⁷. وبالمثل فإن ورود رسول دون تعريف في الآية فيه إشارة إلى أنه فخر لأمتة، خاصة وأنه منهم، أي من صنفهم البشري وبلغتهم العربية، ويعرفون نسبه وشرفه، ويعلمون صدقه

82 - أبو داود، 74/5.

83 - سورة الشعراء، الآية: 214.

84 - سورة الفرقان، الآية: 7.

85 - شرح الشفاء، م.س، 296/1.

86 - البخاري، 46/6.

87 - سورة التوبة، الآية: 129.

وأمانته، وهذا أدعى إلى اتباعه. ومن حرصه على إيمانكم وتوحيد ربكم أنه يشق عليه عنكم وعذابكم وما لا تطيقون، ومن شدة رأفته ورحمته بكم، أنه حريص على منفعتكم دينا ودنيا بالمومنين منكم ومن غيركم⁸⁸.

حاول سادة كفار مكة يائسين النيل من شيم تواضع رسول الله ﷺ فقالوا له: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، يريدون عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وسلمان الفارسي، وابن مسعود وغيرهم من الفقراء كبلال ونحوه. وقالوا: إن ربحهم تؤذينا، فنزل قوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾⁸⁹.

وخرج النبي ﷺ إليهم وجلس بينهم في تواضع وخفض جناح ممثلا توجيه ربه، وقال: الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه، وروي أنه قال لهم: مرحباً بالذي عاتبني فيهم ربي. ﴿واصبر نفسك﴾: واحبس مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، أي خلال الصلوات الخمس، ويدخل ضمن هذا من يجتمع لمذاكرة علم ولو لم يكن في صلاة⁹⁰.

واستمر التوجيه الرباني لنبيه بخفض جناحه للمومنين متوعدا من أعرض عن ذكره ﴿ولا تعد عيناك﴾: أي لا تتجاوز عنهم إلى أبناء الدنيا والملابس من الكفار، (من أغفلنا): أي سادة كفار قريش. ﴿وقل الحق﴾: وقل لهم يا محمد هذا القرآن هو الحق من ربكم. أو وهذا الإعراض عنكم، وترك الطاعة لكم، وصبر النفس مع المؤمنين، وبعد ذلك توعد بقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾: أي فليختر كل امرئ لنفسه ما يجده غدا عند الله عز وجل⁹¹. ولعل سادة قريش غاضهم الانسجام التام بين النبي وأصحابه حتى في أبسط المشاهد التي كانت تعكس جميل تواضعه، منها أن رسول الله ﷺ ركب حمارا مرسونا بغير سرج موكف عليه قطيفة جزرية، ثم دعا معاذ بن جبل فأردفه⁹².

88 - شرح الشفاء، م.س، 1/281.

89 - سورة الكهف، الآية: 28.

90 - المحرر الوجيز، م.س، 3/512.

91 - المحرر الوجيز، م.س، 512-513.

92 - مسند الإمام أحمد، 5/238.

كما سئلت عائشة عما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كما يصنع أحدكم في يمينه يخصف النعل ويرقع الثوب⁹³. فكان ﷺ أشد تواضعا مع سمو منزلته وتام نبوته، ولذلك عندما خير بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا، اختار أن يكون نبيا عبدا من جملة العباد لا من نخبة الملوك، فقال له إسرأيل: إن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة. وفي هذا المنوال كان ﷺ يردد: "تواضعوا وجالسوا المساكين تكونوا من كبراء الله وتخرجوا من الكبر"⁹⁴. وفي هذا الصدد قال أنس بن مالك: "كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويحيب دعوة المملوك"⁹⁵.

- رقة القلب والإلحاح في المناجاة

ومن رقة تفكره وعمق تدبره أن أمر النبي ﷺ يوما أحدا بقراءة آيات من القرآن، فتلا من سورة النساء ما تيسر حتى وقف عند حدود قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾⁹⁶، فتمثل ﷺ هول مشهد حضور كل نبي يوم القيامة لأداء الشهادة في أقوامهم، فبكى رسول الله ﷺ لعلمه أنه مطالب بالشهادة على أمته وسؤاله الشفاعة لهم⁹⁷، وكان ابن مسعود حاضرا فقال: "فرايت عيني النبي ﷺ تهملان"⁹⁸، أي تدمعان من شعوره بثقل المسؤولية.

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أنه لما توفي إبراهيم ابن نبينا محمد عليه السلام حصل كسوف الشمس، فزعم الناس أن كسوفها كان لموت إبراهيم، فقام رسول الله ﷺ يناجي ربه صلى بأصحابه صلاة الكسوف، فأطال السجود وناجى ربه وألح في الدعاء أن لا يؤاخذ الله قومه ﷺ وألا يعذبهم، وفي هذا الصدد قال الإمام أحمد في مسنده: "وجعل ينفخ في الأرض وهو ساجد"⁹⁹؛ وكأن الكسوف ممهد لبلاء، فكان من خلفه يسمع في سجود الركعة الثانية قوله ﷺ: "رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم، وأن لا تعذبهم وهم يستغفرون"، فانجلت الشمس بعد الفراغ من الصلاة.

93 - مسند الإمام أحمد، 6/106.

94 - شرح الشفاء، م.س، 1/294.

95 - ابن ماجة، 2/1398.

96 - سورة النساء، الآية: 41.

97 - فتح الباري، 9/99.

98 - صحيح البخاري، رقم: 4582. وفي رواية أخرى أن ابن مسعود هو الذي قرأ ما تيسر من سورة النساء.

99 - مسند الإمام أحمد، 2/159.

قال ابن عطية في معنى قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾¹⁰⁰: أن المتأولين أجمعوا على أن الله عز وجل لم يعذب قط أمة ونبيها بين أظهرها، فما كان ليعذب هذه وأنت فيهم، بل كرامتك لديه أعظم، وكذلك ما كان الله ليعذب الكفار والمؤمنون بينهم يستغفرون¹⁰¹.

- مناهضة الإطراء والمجاملات

التزم ﷺ بصفة العبودية الخالصة لله من خلال تبليغ رسالة وسطية معتدلة لا غلو يشوب تعاليمها، ولذلك كان يرفض كل إطراء يخرج به عن حد إخلاص العبادة لله وحده، ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾، والمعنى المراد: لم أعط إلا ما أوحى إليّ وكشف لي أنها إلهكم إله واحد، ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه﴾¹⁰²؛ ثم أخذ في الموعظة: فمن كان يؤمن بلقاء ربه، فلا محالة أنه بحالتي خوف ورجاء، عبر بالخوف، ثم بالرجاء على جهة الإطعام وبسط النفوس إلى إحسان الله تعالى¹⁰³.

ويدخل في هذا المعنى أنه لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي ﷺ على وجه التبجيل والتعظيم، قال: ما هذا يا معاذ؟ قال: أتيت من الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك يا رسول الله ﷺ، فقال: لا تفعلوا، فإني لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه¹⁰⁴.

وبالتالي رفض رسول الله ﷺ بقوة هذا التصرف، واعتبر السجود لله وحده لا شريك له، ونهى عن الإفراط في مدحه خوفا من السقوط في المحذور من خلال مجاوزة الحد في الإطراء، في إشارة إلى مبالغة النصارى في مدح نبيهم حتى اعتبروه إلهاً أو ابن إله، فقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله"¹⁰⁵.

100 - سورة الأنفال، الآية: 33.

101 - المحرر الوجيز، 521/2.

102 - سورة الكهف، الآية: 105.

103 - المحرر الوجيز، 547/2.

104 - ابن ماجة، 1853/4.

105 - صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، 3261. مسند الإمام أحمد، 23/1-24.

- الصبر والتحمل وعدم الجزع

كان رسول الله ﷺ يقوم الليل ويلزم نفسه الصبر على القربات والطاعات تأهيلا لها لتحمل أذى مرحلة عصيبة قادمة توافق الجهر بالدعوة، فقد روى الشيخان أن النبي ﷺ "كان يصلي حتى ترم قدماه، فقليل له: أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا". وهو كناية على اجتهداه في قيام الليل راكعا ساجدا لربه¹⁰⁶، فأنزل الله عليه ﴿إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفِهِ وَثُلْثَهُ﴾¹⁰⁷. ولذلك كان النبي الكريم يقوم بوظائف العبادة شكرا لله في إطار أداء حقوق الربوبية الحققة.

وكان الوحي نبراسا لرسول الله يرشده تارة، ويوجه عنايته إلى الثبات على توحيد الله تعالى، ثم أمره جل وعلا بنذارة عشيرته تخصيصا لهم؛ إذ العشيرة مظنة المقاربة والطواعية، وإذ يمكنه معهم من الإغلاظ عليهم مالا يحتمله غيرهم، فإن البر بهم في مثل هذا الحمل عليهم، والإنسان غير متهم على عشيرته. وكان هذا التخصيص مع الأمر العام بنذارة بني آدم بشكل عام، وفي هذا الصدد روي عن ابن جريج أن المؤمنين من غير عشيرته في ذلك الوقت نالهم من هذا التخصيص وخروجهم منه فأوحى إليه سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾¹⁰⁸.

ولما أمر رسول الله ﷺ بهذه النذارة عظم موقع الأمر عليه وصعب؛ ولكنه تلقاه بالصبر وقوة التحمل، وصنع أشياء مختلفة كلها بحسب الأمر، فمن ذلك أنه أمر عليا رضي الله عنه بأن يصنع طعاما وجمع عليه بني جده عبد المطلب وأراد نذارتهم ودعوتهم في ذلك الجمع وظهر منه عليه السلام بركة في الطعام، قال علي: وهم يومئذ أربعون رجلا ينقصون رجلا أو يزيدونه، فرماه أبو لهب بالسحر فوجم رسول الله ﷺ وافترق جمعهم من غير شيء، ثم جمعهم كذلك ثانية وأنذرهم ووعظهم فتضاحكوا ولم يجيبوا، ومن ذلك أنه نادى عمه العباس وصفية عمته وفاطمة ابنته وقال لهم: "لا أغني عنكم من الله شيئا إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد". ومن ذلك أنه صعد على الصفا أو أبي قبيس ونادى: "يا بني عبد مناف واصباحاه". فاجتمع إليه الناس من أهل مكة فقال:

106 - المحرر الوجيز، م س، 322/1.

107 - سورة الزمل، الآية: 18.

108 - سورة الشعراء، الآية: 214.

"أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن الغارة عليكم أكنتم مصدقي؟" قالوا: نعم، فإننا لم نجرب عليك كذباً، فقال لهم: "فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد"، فقال له أبو لهب: ألهذا جمعنا؟ تبال لك سائر اليوم، فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾¹⁰⁹.

كما صبر في تبليغ رسالته إلى الناس دون الالتفات إلى اتهاماتهم له بالصفات القاذحة في أهليته حين رموه بالجنون والسحر والكهانة...، فكان الوحي يسنده بالرد على افتراءاتهم وتزكية نبيه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هِدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾¹¹⁰: أمر الله عز وجل نبيه عليه السلام بالإعلان بشريعته والانتباه من سواها من أضاليلهم، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحسن والفضل والاستقامة، و﴿هداني﴾ أي أرشدني ربي بخلق الهدى في قلبي، و﴿قيماً﴾ نعت للدين معناه مستقيماً ومعتدلاً¹¹¹.

وفي السياق ذاته أمره الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذكاة ذبيحته، وتصرفه مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل وإرادة وجهه وطلب رضاه، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي﴾. وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسّي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل، يصرفه في جميع ذلك كيف شاء، وأنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم، ويكون قوله: ﴿وبذلك أُمِرْتُ﴾ على هذا التأويل راجعاً إلى قوله: ﴿لا شريك له﴾، أي أُمِرْتُ أن أقصد وجه الله عز وجل في ذلك وأن ألتزم العمل ﴿وأنا أول المسلمين﴾ من أمتي¹¹².

وتزايدت حدة مضايقات سادة كفار قريش لرسول الله بالتخلي عن دينه ورسالته بشتى ألوان التهريب والترغيب، وفي هذا المضمار حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وآخرتك، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغِيرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾¹¹³، وهي

109 - سورة المسد، الآية: 1.

110 - سورة الأنعام، الآيتان: 162-165.

111 - المحرر الوجيز، م.س، 1/368-369.

112 - المحرر الوجيز، م.س، 2/369-370.

113 - سورة الأنعام، الآية: 166.

استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ، فواجههم بجلد منقطع النظير، والمعنى أيحسن عندكم أن أطلب إليها غير الله الذي هو رب كل شيء؟ وما ذكرتم من كفالتكم لا يتم لأن الأمر ليس كما تظنون؛ وإنما كسب كل نفس من الإثم عليها وحدها، «ثم إلى ربكم مرجعكم» فيه تهديد ووعد، فيعلمكم وينبئكم أن العقاب على الاعوجاج تبين لموضع الحق، وقوله: ﴿بما كنتم فيه تختلفون﴾ يريد على ما حكى بعض المتأولين من أمري في قول بعضكم هو ساحر وشاعر ونحو هذا¹¹⁴.

وأمام تزايد المحن والابتلاءات، واجهها رسول الله بتحملة واحتسابه، فكان أهلاً أن عده الله سبحانه وتعالى من أولي العزم من الرسل فقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾¹¹⁵. يحتمل أن تكون "إذ" في موضع نصب بإضمار فعل تقديره "واذكر إذ" حيث أخذ الله من النبيين منذ الخلق الأول بالتبليغ وبتصديق بعضهم بعضاً، فذكر النبيين جملة، ثم خصص بالذكر أسماء فردية منهم تشريفا وتخصيصاً، إذ هؤلاء الخمسة هم أصحاب الكتب والشرائع، وقد ذكر نبينا محمداً ﷺ على مرتبته في الزمن تشريفا خاصاً له أيضاً، وروى عنه عليه السلام أنه قال: "كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث"¹¹⁶. ولعل الأنبياء الخمسة المذكورين سلفاً من أهل العزم هم المقصودون في قوله تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾¹¹⁷.

وفي مراحل الابتلاء واشتداد الأذى الموافق في الغالب للصدع بالدعوة، كان زاد المصطفى بعد التوكل على الله قوة التحمل، وعدم الجزع من كلام المستهزئين، والصبر على أذاهم، واحتساب الأجر على الله، قال تعالى: ﴿فاصدع بما توامر وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾¹¹⁸. قال عبد الحق بن عطية الأندلسي: "فاصدع نزلت في الأمر بالجهر بالقرآن في الصلاة، وكذا الجهر في تبليغ الدعوة، ﴿وأعرض عن المشركين﴾، وهي من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف. وحسب ابن عباس فقد أعلمه رب العزة أنه كفاه

114 - المحرر الوجيز، م.س، 2/370.

115 - سورة الأحزاب، الآية: 7.

116 - المحرر الوجيز، 4/371.

117 - سورة الأحقاف، الآية: 34.

118 - سورة الحجر، الآيات: 94-95-96.

المستهزئين من كفار مكة¹¹⁹. ثم أردف الحق سبحانه دعمه لصبر نبيه ﷺ وثباته في دعوته في تأنيسه وتسليته عن أقوال المشركين، وضيق الصدر يكون من امتلائه غيظاً بما يكره الإنسان ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾¹²⁰، وأن تكون الصلاة مسلاته عند الهموم، لأن فيها حالة القرب من الله وهي السجود، وفي الحديث: كان "إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة"¹²¹.

فكانت مظاهر صبره ﷺ تتجلى في مقابلة السيئة بالحسنة، والانتقام بالحلم، ويهرع إلى الصلاة لتخفيف من وطأة المضايقين، فكانت عناية الله تتدخل لنصرته وصدق ﷺ حين قال: "الصبر ضياء". وقد بين الله جل جلاله ما كان يتعرض له نبيه ﷺ من ابتلاء فكان يستعين على التخفيف من وطأة المضايقات بالصلاة والتهجد والاستغفار. وكان أمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط يلمزون رسول الله ويسبونونه ويكيلون له الشتائم، فتوعدهم الوحي بالويل ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾¹²²، والويل واد في جهنم، والهمزة سب الناس وعيبتهم، واللمزة قريب من المعنى في الهمزة، غير أن الهمز بالحضور واللمز بالمغيب. ونزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق الثقفي، الذي أذى رسول الله ﷺ، وقيل في غيره¹²³. وقد ترك رسول الله ﷺ للوحي أن يفضحه على رؤوس الأشهاد بتعداد مثالبه فقال تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم﴾¹²⁴.

كما دأب الوحي على مساندة النبي الكريم في رسالته ودعوته من خلال التنويه بعظيم قدره وتبشيره بالفتح فما عليه إلا أن يصبر ويوصي أصحابه بفضيلة التحلي بالصبر في الملهمات والأزمات، قال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً. إن الذين يباعدونك إنا يباعدونك الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً﴾¹²⁵. قال عبد الحق بن عطية الأندلسي:

119 - المحرر الوجيز، م.س، 3/375.

120 - سورة الحجر، الآية: 97.

121 - المحرر الوجيز، م.س، 3/376.

122 - سورة الهمزة، الآية: 1.

123 - المحرر الوجيز، م.س، 5/521.

124 - سورة القلم، الآيات: 10-11-12-13.

125 - سورة الفتح، الآيات: 8-10.

"شاهدا على الناس بأعمالهم وأقوالهم حين بلغت إليهم الشرع، ومبشرا أهل الطاعة برحمة الله، وأهل الكفر تنذرهم بعذاب الله، مع التنويه بمكانة رسول الرحمة فتعزروه وتعظموه وتوقروه. ﴿إن الذين يبايعونك﴾ وهي بيعة الرضوان¹²⁶، بيعة الشجرة حين أخذ رسول الله ﷺ الأهبة لقتال قريش لما بلغه قتل عثمان بن عفان رسوله إليهم، وذلك قبل أن ينصرف من الحديبية، فبايعهم رسول الله ﷺ على الصبر في قتال العدو. ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، أي نعمة الله في هذه المبايعة التي مدوها لبيعتك"¹²⁷. ومن شائيل حكمته في الدعوة أنه كان يدعو الناس بالرحمة والحكمة يبشر تارة وينذر أخرى بحسب أوضاع الفئات المستهدفة من دعوته.

وكان رسول الله ﷺ يقابل جهل أعدائه وتجاسرهم عليه بصبره وحلمه وغالبا ما كان يصفح عنهم ويجازيهم بعطائه وسخائه، فقد احتمل جفاء الأعراب إلى أن أطاعوه وانقادوا لدعوة الحق، وفي هذا الصدد أتاه أعرابي فجذبه بردائه حتى أثر برقبته نظرا لخشونته، ويقول له: احملي على بعيري هذين، أي أعطني طعاما أو قوتا أحمله عليهما، وأضاف: فإنك لا تحملني من مالك، أي لا تعطيني من مالك، ولا من مال أبيك. فقال رسول الله ﷺ: "لا"، واستغفر ربه، ثم قال لا أحملك حتى تقيدني من جذبتك"، فقال: لا والله لا أقيدكها. ثم دعا رجلا فقال له: "احمل له على بعيره هذين؛ على بعير تمرا، وعلى الآخر شعيرا"¹²⁸.

- العفو والصفح والتسامح

من جملة الآداب وحميد الشائيل التي من الله بها على نبيه صفة العفو وتدور على المسامحة والصفح وعدم المؤاخذه، والأمر بالمعروف وحسن المعاملة، قال عز وجل: ﴿خذ العفو وامر بالعرف﴾¹²⁹. وترك المقابلة بالمثل لقوله عز وجل: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾¹³⁰. فلما نزلت آية العفو المذكورة سأل عنها رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام، فقال: "يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك".

126 - المحرر الوجيز، م.س، 226/1.

127 - المحرر الوجيز، م.س، 128/5-129.

128 - رواه أبو داود والنسائي وأحمد وإسناده فيه ضعف.

129 - سورة الأعراف، الآية: 199.

130 - سورة الأعراف، الآية: 199.

وفي هذا المنحى روى الإمام مسلم وغيره أنه هبط ثمانون رجلا من التنعيم - وهو أقرب أطراف مكة وهو على ثلاثة أميال منها من جهة المدينة والشام، سمي بذلك لأنه على يمينه جبل يقال له ناعم والوادي نعمان - صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ بغتة، فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾¹³².

وروي في سبب نزول هذه الآية حسب صاحب "المحرر" تفصيلا يتساق مع ما أجمل أعلاه، وذلك أن قريشا جمعت فتيانها وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل وخرجوا يطلبون غرة في عسكر رسول الله ﷺ، فلما أحس بهم المسلمون بعث رسول الله ﷺ في أثرهم خالد بن الوليد في جملة من المسلمين، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة وأسروا منهم جملة، فسيقوا إلى رسول الله ﷺ، فمن عليهم وأطلقهم، فهذا هو أن كف الله أيديهم عن المسلمين بالرعب، وكف أيدي المسلمين عنهم بالنهي في بيوت مكة، وذلك هو بطن مكة¹³³.

وأخبار رسول الله ﷺ في الصفح والتسامح الباعث على سلامة الصدر وصفاء السريرة يعز عن الحصر، من ذلك أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها فجيء بها إلى النبي ﷺ فسألها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك، فقال ﷺ: "ما كان الله ليسلطك على ذلك"؛ أو قال: "على كل مسلم"، قالوا: أفلا نقتلها؟ قال: "لا"¹³⁴.

وفي هذا الإطار المفعم بمشاهد الصفح وعدم الانتقام، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لما كان يوم الفتح أرسل رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية بن خلف، وأبي سفيان بن حرب، وإلى الحارث بن هشام، قال ابن الخطاب رضي الله عنه: فقلت: قد أمكنني الله عز وجل منهم بما صنعوا حتى قال رسول الله ﷺ: "مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾"¹³⁵، - أي لا لوم عليكم ولا عقوبة، بل عفو جميل - قال عمر: فانفضحت حياء من رسول الله ﷺ¹³⁶.

131 - المحرر الوجيز، م.س، 253/1.

132 - سورة الفتح، الآية: 24.

133 - المحرر الوجيز، م.س، 135/5.

134 - صحيح مسلم، 1721/4. صحيح البخاري، 230/5.

135 - سورة يوسف، الآية: 92.

136 - السيوطي، الدر المنثور، 578/4.

وبالمثل فقد قطع نبي الرحمة والصفح الجميل كل السبل المؤدية إلى نشوء الضغائن والأحقاد بينه وبين الصحابة، فهى عن القيل والقال ونقل الوشائيات والأخبار الكاذبة، قال ابن مسعود: "قال رسول الله ﷺ: لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر"¹³⁷. وهذا الحديث يحتمل النهي والنفي، أي لا ينقل أحد عن أحد من أصحابي شيئاً مما ينكر فعله من أيهم كان، لأنه ﷺ يجب أن يخرج إليهم سليم الصدر من الحقد¹³⁸.

كما نفى أصحابه عنه ﷺ الكلام الفاحش والبذيء، قال أبو هريرة رضي الله عنه: "لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخاباً في الأسواق"¹³⁹. قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "ولكن يعفو ويصفح" مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾¹⁴⁰. وأصل كلمة الصفح الإعراض بصفحة الوجه، والمراد عدم المقابلة بذكره وظهور أثره، ووجه الاستدراك أن ما قبل "لكن" في قولها ربما يوهم أنه ترك الجزاء عجزاً أو مع بقاء الغضب فاستدركت عائشة بذلك. ومن كريم عفوه حتى مع ألد أعدائه الذين حاربوه وكسروا ربايعيته وشجوا وجهه يوم أحد، فعز ذلك على أصحابه، وطلبوا منه أن يدعو عليهم، فقال ﷺ: "إني لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"¹⁴¹.

وعلق القاضي عياض على هذا الحلم النبوي بقوله: "انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر، والحلم، حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم، ودعا وشفع لهم، ثم اعتذر عنهم بجهلهم بقوله: فإنهم لا يعلمون"¹⁴².

وعموماً كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن أهل الكتابين والمشركين¹⁴³، فأنزل الله عز وجل: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير﴾¹⁴⁴. قال ابن عطية: "والعفو ترك العقوبة وهو من (عفت الآثار)، والصفح الإعراض عن المذنب"¹⁴⁵.

137 - مسند الإمام أحمد، 1/395.

138 - شرح الشفاء، 1/284.

139 - مسند الإمام أحمد، 2/328.

140 - سورة المائدة، الآية: 14.

141 - صحيح بن حبان، 3/254.

142 - شرح الشفاء للقاضي عياض، 1/246.

143 - صحيح مسلم، 3/1422.

144 - سورة البقرة، الآية: 108.

145 - المحرر الوجيز، م س، 1/196.

الشجاعة والإقدام والإغاثة

فضيلة قوة الغضب منقادة للشرع. والنجدة ثقة النفس، وقيل: الإغاثة والإعانة، والحاصل أن النجدة قوة تنشأ عن الشجاعة. فقد روي أن النبي ﷺ أقوى قلباً وأشجع قلباً في غزوة حنين حيث أعجب المسلمون بكثرتهم وقالوا: لن نغلب اليوم عن قلة، وكانوا ما بين 10 آلاف و16 ألفاً، والكفار لا يتعدون 4 آلاف، فوكلهم الله إلى أنفسهم فولوا مدبرين، قال البراء: لقد رأيته على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان الحارث بن عبد المطلب أخذ بلجامها، وفي الوقت الذي فر فيه المسلمون ثبت الرسول الكريم، وفي ركوبه البغلة حال الغزوة إيما إلى كمال تحقق النجدة وهو ﷺ يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»¹⁴⁶.

ونجعل مسك ختام ما أتينا به من نزر يسير من كريم شمائل المصطفى، ذلك الحديث الذي دار بين حفيده الحسن وأبيه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، الذي لخص فيه حميد الصفات التي امتاز بها نبي الرحمة، فقال الحسن بن علي بن أبي طالب: سألت أبي عن النبي كيف كانت سيرته في جلسائه، قال: كان رسول الله دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا فاحش، ولا عياب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ويؤيس منه ولا يحيب منه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عوراته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، حديثهم عنده حيث أولهم، يضحك مما يضحكون، ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقته ومسألته، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم فيقول: إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الشاء إلا من مكاف، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي، أو قيام. فسألت: كيف كان سكوت رسول الله ﷺ؟ قال: كان سكوت رسول الله ﷺ على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير. فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع من الناس، وأما تفكيره فيما يبقى ولا يفنى، وجمع له الحلم في الصبر، فكان لا يغضبه شيء، ولا يستفزه. وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسن ليقتردى به، وتركه القبيح ليتتهى عنه، واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته، والقيام فيما هو خير لهم، جمع لهم خير الدنيا والآخرة¹⁴⁷.

146 - المحرر الوجيز، م.س، 1/261-263-264.

147 - طبقات ابن سعد، 1/422. البيهقي، دلائل النبوة، 1/285.

التكوين الروحي في السنة النبوية: الأسس والمناهج

ذة. خديجة بوسبع

- بني ملال.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله ومن سار على نهجه واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

إن من يستقرئ السيرة النبوية التي سجلت أوضاع العرب على مختلف النواحي العقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية... يجد أن انتصار الإسلام ونشره في بقاع العالم لم يكن بالأمر الهين، وأن بناء المجتمع الإسلامي قد قام على أكتاف رجال كونهم خاتم الأنبياء والمرسلين خير تكوين. ومن التكوينات التي أولاهها النبي (ﷺ) عناية واهتماما التكوين الروحي لما له من أهمية في تخلية النفوس من الشوائب وتحليتها بالمكارم.

فعلى قدر ما يمتلك الإنسان من مقومات روحية كالإيمان بالله والاستقامة والمحبة الخالصة لله وللرسول الكريم والرضا بالقضاء والقدر، والصبر على المكاره وغيرها من المقومات، تيسر له الطاعات وتجنبه المحرمات وتجعله قادرا على مواجهة الأزمات.

فبتنوع المنهج النبوي في التكوين الروحي تمكن رسول الله من صنع جيل من الصحابة تحمل الصعاب وبذل الغالي والنفيس في سبيل نشر الإسلام، وبني حضارة فاقت أقوى حضارات ذلك العصر.

ووعيا مني بأهمية التكوين الروحي فقد ارتأيت دراسة هذا الموضوع المعنون بـ "التكوين الروحي في السنة النبوية: الأسس والمناهج" من خلال خطة بحث اشتملت على مقدمة ومطالب ثلاثة وخاتمة:

المطلب الأول: مفهوم "التكوين الروحي"، "السنة النبوية".

المطلب الثاني: أسس التكوين الروحي في السنة النبوية.

المطلب الثالث: المناهج النبوية في التكوين الروحي.

المطلب الأول: تعريف "التكوين الروحي"، "السنة النبوية".

الفرع الأول: تعريف "التكوين الروحي"

يرجع الأصل اللغوي للتكوين إلى مصدر كَوَّنَ، ومن معانيه تدريب، تربية وتعليم، تركيب، بنية، إنشاء¹.

أما اصطلاحاً فينصرف إلى بناء الإنسان، وجعله أكثر قدرة على العطاء عن طريق تزويده بإمكانات خاصة وقدرات جديدة، تيسر له سبل التأقلم والتجاوب مع متطلبات عمله وتحقيق معدلات الأداء المحددة، وتنمي القدرات الفكرية، والتي تساعد على استخدام جميع طاقاته².
والتكوين إذن تعليم وتربية وإعداد للإنسان لاكتساب مبادئ ومعارف ومهارات جديدة تؤهله لتقويم سلوكيات قديمة واكتساب أخرى جديدة، وللتكيف مع الوضع الجديد وجعله أكثر قدرة على العطاء.

أما الروح لغة: فقد جاء في معجم مقاييس اللغة: (رَوَّحَ) الرَّاءُ وَالْوَاوُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ كَبِيرٌ مُطَّرَدٌ، يَدُلُّ عَلَى سَعَةٍ وَفُسْحَةٍ وَاطِّرَادٍ. وَأَصْلٌ [ذَلِكَ] كُلُّهُ الرِّيحُ. وَأَصْلُ الْيَاءِ فِي الرِّيحِ الْوَاوُ، وَإِنَّمَا قُلِبَتْ يَاءٌ لِكَسْرَةِ مَا قَبْلَهَا. فَالرُّوحُ رُوحُ الْإِنْسَانِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّيحِ، وَكَذَلِكَ الْبَابُ كُلُّهُ. وَيُقَالُ أَرَّاحَ الْإِنْسَانُ، إِذَا تَنَفَّسَ³.

وفي المعجم الوسيط: فإن "(الروح) ما به حياة النفس (يذكر ويؤنث) والنفس (جمع أرواح)"⁴.

واختصاراً فإن مفهوم الروح قد اتخذ معان كثيرة منها: النفس وما به حياة الإنسان، الملائكة كجبريل، القرآن الكريم، عيسى بن مريم، ما يقابل المادة،...

1 - أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، 3/ 1974. بتصرف.

2 - رانية هادف، المناخ التنظيمي في ظل الشراكة الأجنبية وعلاقته بالأمن النفسي، ص 75.

3 - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، 2/ 454.

4 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، 1/ 380.

وأما الروح اصطلاحاً فهي عنصر هام من عناصر تكوين الإنسان، وهي لا تصل إلى كمالها إلا بالتربية المستمدة من منهج الله. هذا وإن أرواح بني آدم لم ترد في القرآن إلا بمسمى النفس، لكنها وردت في السنة بلفظ النفس والروح⁵.

أما التكوين الروحي فهو إعداد وبناء للنفس الإنسانية وإرجاعها إلى صفاء الفطرة التي خلقت عليها.

الفرع الثاني: تعريف السنة النبوية

تعددت معاني السنّة في اللغة ومنها: الطّريقَةُ. يُقَالُ: اسْتَقَامَ فُلَانٌ عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ. وَيُقَالُ: امْضِ عَلَى سَنِّكَ وَسُنِّكَ أَي على وجهك. الطَّرِيقُ الْمُسْلُوكُ⁶. وفي المصباح المنير: السنّة الطّريقَةُ والسّنّة السّيرة حميدة كانت أو ذميمة والجُمعُ سُننٌ⁷.

كما تطلق على معان أخرى كالمَنهج والسبيل والعادة، محمودة كانت أو مذمومة.

أما التعريف الاصطلاحي للسنّة فلا يقل تنوعاً واختلافاً بين الحقول العلمية، فكل أهل فن إلا وله تعريفه الخاص به. وسأقتصر على تعريف السنّة في اصطلاح علماء الحديث باعتبارها "كل ما فعله النبي (ﷺ) ولم يدلّ على وجوبه دليل"⁸. وقد عرفها آخرون بكونها "كل ما نُقل عن رسول الله (ﷺ) من أقوال وأفعال وتقريرات، وصفات خلقية وخلقية، سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها"⁹.

للإشارة فإن تعريف السنّة النبوية جاء بمعنى الحديث النبوي وأن أحدهما يُوضع مكان الآخر¹⁰.

5 - منير بركاني، مفهوم التربية الروحية، تدوينه، آخر تحديث: 7 نوفمبر، 2019م.

6 - ابن منظور، لسان العرب، 13/ 226.

7 - أحمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ص 292.

8 - مجموعة مؤلفين، الموسوعة الفقهية الكويتية، 25/ 275. بتصرف.

9 - موفق الدين عبد الله بن قدامة، روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه، 1/ 274 بتصرف.

10 - مصطفى السباعي، السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص 47.

المطلب الثاني: أسس التكوين الروحي في السنة النبوية

الفرع الأول: التوحيد

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾¹¹. انطلاقاً من هذه الآية الكريمة نستخلص أن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الكتب وبعث الرسل من أجل غاية سامية ألا وهي التوحيد الخالص لله عز وجل؛ ف جاء كل رسول داعياً قومه إلى أفراد الله تعالى بالعبادة وأنه المستحق وحده بها دون سواه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾¹². باعتبار أن "التَّوْحِيدَ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ دِينًا غَيْرَهُ وَبِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾¹³. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كُلِّ مِنَ الرُّسُلِ أَنَّهُ افْتَتَحَ دَعْوَتَهُ بِأَن قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾¹⁴ 15". قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يُرْسَلْ نَبِيٌّ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ، وَالشَّرَائِعِ مُخْتَلَفَةٍ فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ"¹⁶.

فجاهد كل رسول ليخرج قومه من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان. ولم يشذ محمد (ﷺ) عن هذا المقصد، بل كان الركن الأعظم الذي سعى جاهدا لتحقيقه، فقد أرسل محمد (ﷺ) لإخراج أمة نحتت الأحجار لتتخذها آلهة لها من دون الله قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾¹⁷. وعن أبي رجاء العطاردي: "كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الْآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثُوَّةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَفْنَا بِهِ"¹⁸.

11 - سورة الذاريات: 56.

12 - سورة النحل: 36.

13 - سورة الأنبياء: 25.

14 - سورة الأعراف: 58.

15 - مجموع الفتاوى، أحمد بن تيمية، 1/ 155.

16 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، 11/ 280.

17 - سورة نوح: 23-24.

18 - رواه البخاري، رقم الحديث: 4376، بَابُ وَفْدِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَحَدِيثُ ثُمَامَةَ بْنِ أَنَّثَالٍ، 5/ 171.

فقد دعا النبي (ﷺ) قومه لعبادة الواحد الأحد، لكن صناديد قريش لم تتقبل دعوته (ﷺ)، فحاربته وتفننت في تعذيب من آمنوا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا ونبياً. ورغم كل محاولاتهم لصد دعوته (ﷺ)، إلا أنه تمكن من صنع جيل قل نظيره؛ تبنى الدعوة وساند الرسول (ﷺ)، وضحى بالغالي والنفيس من أجلها. حيث ركز على إصلاح القلوب والنفوس محاولاً إعادة الصفاء للفطرة التي خلق عليها الإنسان وكل ذلك وفق الشرع الإسلامي، وملاًها بعقيدة التوحيد الخالص لله عز وجل، مركزاً في ذلك على أن التفاضل في مدى ازدياد المسلم من الإيمان قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾¹⁹.

فالنبي (ﷺ) اهتم بالتكوين الروحي في الإنسان، لتنفير النفوس من الشرك ومخاطبة العقول ودعوتها للتدبر والتفكير في منحوتاتها، لنبد الشرك، وإزالة شوائب الجاهلية ونقلها إلى دين جديد بأصول جديدة.

فقد كان المنهج النبوي في تكوين جيل فريد يرتكز على بناء الروح البشرية بالعقيدة الإسلامية والأخلاق الرفيعة بعد إفراغها من المعتقدات الفاسدة. ف"المتبّع للقرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أن رسول الله (ﷺ) ربّى أصحابه على تمثّل الإسلام الذي أراده الله، وذلك بتعليمهم كتاب الله وتفسيره لهم، وبتطبيق تعاليم الإسلام أمامهم؛ ليقنّوا به، وإرشادهم بالسنة القولية والفعلية إلى دين الله القويم، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون، مما فيه صلاح دينهم ودنياهم، فهذه هي مهمة الرسول (ﷺ)، كما أخبر الله عز وجل بذلك، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^{20 21}.

فقد كانت تنشئة الصحابة على صحيح المعتقد من أولى الأولويات التي أعطاهها النبي (ﷺ) الرعاية في الرعي الأول من صحابته الكرام، فما أدخَرَ في ذلك وسعاً، ولا كَلَّتْ عزائمه

19 - سورة التوبة: 125.

20 - سورة البقرة: 150.

21 - علي بن نفيح العلياني، أهمية الجهاد في نشر الدعوة ورد الطوائف الضالة فيه، ص 46.

لأجل هذه الغاية، فقد كان همُّه الأول، وشغله الشاغل تصحيح معتقد أولئك النفس، الوافدة عقولهم وقلوبهم وطبائعهم من جاهلية عمياء، وأعراف مهترئة، وبداءة قحّة، كانت تُعبد فيها الأصنام، وتُنتهك فيها أبشع الجرائم الاعتقادية، وأشنع الموبقات الأخلاقية. لذا حمل النبي (ﷺ) على عاتقه أول ما حمل بناء تصور إيماني جديد لجيل الصحابة، ينسخ به ما كان في جاهليتهم، فعلمهم أول ما علمهم أن هناك ربًّا سميعًا بصيرًا عليًّا، يجب أن تصرف في حقه كل العبادات، من صلاة ودعاء واستغاثة.. وأن يُناجى بأسمائه الحسنی وصفاته العليا؛ ولهذا كان المجتمع المكي الأول مجتمعًا إيمانيًا، تُغرس فيه أصول المعتقد السليم، وتبنى على هذه الأصول لبنات الإيمان بالله ربًّا وإلهًا، ذي السمع والبصر والقدرة والسيادة²².

فصرف الرسول (ﷺ) زهاء نصف عمر الدعوة الإسلامية في ملأ قلوب المسلمين بعبادة الإله الواحد فقط، وكون جيلًا مؤمنًا قادرًا على تحمل مسؤولية نشر الإسلام ومحاربة الكفر. إذ كانت مهمته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها ونشرها في الآفاق، ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع بقدر ما كانت مرحلة تربية وتكوين²³.

فقد كانت عقيدة التوحيد هي العقيدة الأم التي أنتجت فيما بعد هذا الوازع الإيماني في قلوب الصحابة، وما كان لعقيدة أن تصمد أمام أصنام قريش المتراصة حول الكعبة، وصناديدها المنافحين عنها بالنفس والمال والأهل، إلا عقيدة آسرة للقلوب والعقول، ومهيمنة على الحياة بكل تفاصيلها، عقيدة تُرسخ لفكرة الرب الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي يُدير شؤون هذا الكون الفسيح وفق إرادة خالصة، لا يعترها العجز، ولا يتدخل فيها الشركاء، من صاحبة أو ولد، كما كان يدّعي المبطلون، إنسًا وجنًّا، يقول المولى عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾²⁴²⁵.

22 - رمضان الغنام، البناء العقدي في مجتمع الصحابة، طريق الإسلام.

23 - علي محمد الصلاحي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، ص 106.

24 - سورة الإسراء: 110.

25 - رمضان الغنام، البناء العقدي في مجتمع الصحابة.

وقد استغرقت فترة بناء عقيدة التوحيد وتكوين الصحابة المرحلة المكية بأكملها، ولم يتجاوزها إلا بعد أن ترسخت في نفوس الرعيل الأول الذين فروا من ديارهم بحثا عن ديار جديدة تؤمن لهم عبادتهم الله الواحد الأحد وتحمل لواء الدعوة الإسلامية.

فانعكس تأثير التوحيد الخالص على وجدان الصحابة وتصوراتهم وسلوكياتهم وممارستهم. فقد أتت تربية الرسول (ﷺ) لأصحابه ثمارها المباركة.

وبهذا التكوين النبوي للصحابة امتلأت القلوب والعقول حبا وإيمانا، فضحوا بالنفس والولد والمال والوطن، وجهروا بالحق في وجه الطغاة، وتحملوا التعذيب بنفس مطمئنة، وساروا على المنهج النبوي وأكملوا المسير في نشر عقيدة التوحيد، فكانوا خير سفراء لخير رسول عليه أزكى الصلاة والسلام. فبمثل هذا الرعيل استطاع الرسول (ﷺ) بناء مجتمع إسلامي قادر على مواجهة أقوى الحضارات التي كانت في ذلك العصر.

الفرع الثاني: محبة الله تعالى والرسول (ﷺ)

ساهمت عوامل كثيرة في نشر الإسلام ونصرته ومن ذلك محبة الله تعالى ورسوله (ﷺ)، هذه المحبة إنما هي نتيجة للتربية الإيمانية التي ترسخت في القلوب، والتي يسرت الصعب، ودفعت للتنافس في الخيرات واجتناب المحرمات. كل ذلك طمعا في إرضاء المحبوب. فالمرء "لَا يَسُوقُ نَفْسَهُ إِلَى اللَّهِ كَرْهًا. بَلْ تَكُونُ دَوَاعِي قَلْبِهِ وَجَوَادِبُهُ مُنْسَاقَةً إِلَى اللَّهِ طَوْعًا وَمَحَبَّةً وَإِثَارًا. وَهَذِهِ حَالُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ. فَإِنَّ عِبَادَتَهُمْ طَوْعًا وَمَحَبَّةً وَرِضًا. فَفِيهَا قُرَّةُ عُيُونِهِمْ، وَسُرُورُ قُلُوبِهِمْ، وَلَذَّةُ أَرْوَاحِهِمْ. فَقُرَّةُ عَيْنِ الْمُحِبِّ وَلَذَّةُ وَنَعِيمُ رُوحِهِ: فِي طَاعَةِ مُحَبُّوبِهِ. بِخِلَافِ الْمُطِيعِ كَرْهًا، الْمُتَحَمِّلِ لِلْخِدْمَةِ ثَقَلًا"²⁶. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ"²⁷.

وعلق مصطفى البغا على الحديث بقوله: (وجد حلاوة الإيمان) انشرح صدره للإيمان وتلذذ بالطاعة وتحمل المشاق في الدين. (لا يحبه إلا الله) لا يقصد من حبه غرضا دنيويا²⁸.

26 - محمد ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، 102/2. بتصرف.

27 - رواه البخاري في صحيحه، رقم الحديث: 16، بَابُ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، 12/1.

28 - تعليق مصطفى البغا على الحديث رقم: 16، بَابُ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، صحيح البخاري، 12/1.

فالعبودية لله لا تتحقق لها الاستمرارية والدوام إلا بالمحبة الخالصة له سبحانه ولرسوله دون شرط. كيف لا و"مَحَبَّةُ اللَّهِ بَلْ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ وَأَكْبَرِ أَصُولِهِ وَأَجَلِ قَوَاعِيدِهِ؛ بَلْ هِيَ أَصْلُ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْإِيمَانِ وَالَّذِينَ كَمَا أَنَّ التَّصَدِيقَ بِهِ أَصْلُ كُلِّ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِ الْإِيمَانِ وَالَّذِينَ؛ فَإِنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ فِي الْوُجُودِ إِنَّمَا تَصْدُرُ عَنْ مَحَبَّةٍ: إِمَّا عَنْ مَحَبَّةٍ مَحْمُودَةٍ أَوْ عَنْ مَحَبَّةٍ مَذْمُومَةٍ"²⁹.

ومحبة الله ورسوله كانت من أسس تكوين الصحابة روحيا وعقليا فعبدُ الله بَنَ هِشَامُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ) وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): «الآنَ يَا عُمَرُ»³⁰ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»³¹.

وقد بلغ أثر المحبة لله تعالى وللرسول (ﷺ) في قلوب بعض الصحابة مبلغ الهيام؛ حتى أنه ما عاد يستطيع الابتعاد عن الرسول (ﷺ) فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَلَّا أَرَكَ. فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ (ﷺ) حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾³² ³³.

وكان من المنهج النبوي معرفة مدى محبة الصحابة له؛ وفي رواية جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»³⁴.

29 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 40/10.

30 - رواه البخاري في صحيحه، رقم: 6632، بَابُ: كَيْفَ كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ (ﷺ)، 129/8.

31 - رواه البخاري في صحيحه، رقم: 14، بَابُ: حُبِّ الرَّسُولِ (ﷺ) مِنَ الْإِيمَانِ، 12/1.

32 - سورة النساء: 68.

33 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 354/2.

34 - رواه البخاري في صحيحه، رقم: 6168، بَابُ: عَلَامَةِ حُبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، 39/8.

وقال ابن تيمية: "وَهَذَا الْحَدِيثُ حَقٌّ فَإِنْ كَوَّنَ الْمُحِبُّ مَعَ الْمُحِبُّوبِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ لَا يَكُونُ غَيْرَ ذَلِكَ وَكَوْنُهُ مَعَهُ هُوَ عَلَى مَحَبَّتِهِ إِيَّاهُ، فَإِنْ كَانَتْ الْمَحَبَّةُ مُتَوَسِّطَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ كَانَ مَعَهُ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ الْمَحَبَّةُ كَامِلَةً كَانَ مَعَهُ كَذَلِكَ. وَالْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ مَحَبٌّ مَعَهَا الْمُوافَقَةُ لِلْمَحْبُوبِ فِي مَحَابِهِ إِذَا كَانَ الْمُحِبُّ قَادِرًا عَلَيْهَا، فَحَيْثُ تَخَلَّفَتِ الْمُوافَقَةُ مَعَ الْقُدْرَةِ يَكُونُ قَدْ نَقَصَ مِنَ الْمَحَبَّةِ بِقَدَرِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً. وَحُبُّ الشَّيْءِ وَإِرَادَتُهُ يَسْتَلْزِمُ بُغْضَ ضِدِّهِ وَكَرَاهَتَهُ مَعَ الْعِلْمِ بِالتَّضَادِّ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾³⁵ 36.

وقال ابن تيمية: "وَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَهُوَ يَجِدُ فِي قَلْبِهِ لِلرَّسُولِ مِنَ الْمَحَبَّةِ مَا لَا يَجِدُ لغيرِهِ، حَتَّى أَنَّهُ إِذَا سَمِعَ مَحْبُوبًا لَهُ - مِنْ أَقَارِبِهِ وَأَصْدِقَائِهِ - يَسُبُّ الرَّسُولَ، هَانَ عَلَيْهِ عداوتُهُ وَمُهَاجَرَتُهُ، حُبُّ الرَّسُولِ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا"³⁷.

فكانت أصرة العقيدة للرعييل الأول أقوى من أصرة القرابة فمحببتهم لله وللرسول (ﷺ) فاقت كل أنواع المحبة لغيرهما، مما يدل على أهمية هذا الأساس في تكوين شخصية الصحابة الإيمانية والذين نهضوا ببناء المجتمع الإسلامي، وصاروا قدوة لمن جاء بعدهم، كيف لا وقد زكاهم القرآن الكريم والسنة النبوية قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُهم فِي وُجُوهِهم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾³⁸. وقال (ﷺ): "خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"³⁹.

35 - سورة المجادلة: 21.

36 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 752/10.

37 - ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، 401/5.

38 - سورة الفتح: 29.

39 - رواه البخاري في صحيحه، رقم: 3650، باب: «وَمَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ (ﷺ)، أَوْ رَأَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ»، 2/5.

لذا ينبغي محبة الله ورسوله ومن أحبه من الصحابة والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.
ولا تتحقق هذه المحبة إلا باتباع الأوامر الإلهية والسير على الهدى النبوي وتوقير الصحابة. عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: «مَنْ أَشَدَّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ
رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»⁴⁰.

الفرع الثالث: الاستقامة

قلنا فيما سبق أن التربية الروحية العقيدية التي انتهجها النبي (ﷺ) قد أتت أكلها في صناعة
جيل مؤمن مستقيم على أمر الله تعالى متبع لأوامره ومتمتع بنواحيه. إذ من مقتضيات الإيمان
الاستقامة؛ إذ لا استقامة بدون إيمان ولا إيمان بدون استقامة، "وقد سُئِلَ صَدِيقُ الْأُمَّةِ وَأَعْظَمُهَا
اسْتِقَامَةً - أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ؟ فَقَالَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا. يُرِيدُ
الْإِسْتِقَامَةَ عَلَى مَحْضِ التَّوْحِيدِ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْإِسْتِقَامَةُ: أَنْ تَسْتَقِيمَ عَلَى
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَلَا تَرْوُغَ رَوَّغَانَ الثَّعَالِبِ. وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اسْتَقَامُوا:
أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لِلَّهِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:
اسْتَقَامُوا: أَدَّوْا الْفَرَائِضَ"⁴¹.

وكما هو واضح أن رؤية الصحابة حول الاستقامة تتكامل فيما بينها. فلا أداء للفرائض
ولا إخلاص للعمل بدون الاستقامة على الأوامر والنواهي، ولا استقامة على أمر الله وتجنب
نواحيه دون الإيمان بوحدانيته تعالى وأن الأمر كله بيده سبحانه. فسلامة العقيدة إذن تنتج
استقامة الجوارح اعتقادا وقولا وفعلا.

واستقامة الصحابة إنما هي نتيجة المنهج النبوي الذي كان يجب إليهم الإيمان إلى القلوب،
ولا إيمان بدون عمل. وقد كان من منهج النبي (ﷺ) لترسيخ الاستقامة في النفوس التبشير
والإنذار. من ذلك ما روي عنه (ﷺ) قَالَ: "اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ
الصَّلَاةُ، وَلَكِنْ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ"⁴².

40 - رواه مسلم في صحيحه، رقم: 2832، 4 - بَابُ فِيمَنْ يَوَدُّ رُؤْيَا النَّبِيِّ (ﷺ) بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ، 4/ 2178.

41 - ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، 104/2.

42 - مسند الإمام أحمد، رقم: 22378، وقال: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح، 37/ 60.

قال المناوي: (استقيموا) أي الزموا الاستقامة والزموا المنهج المستقيم بالمحافظة على إيفاء حقوق الحق ورعاية حدوده والرضى بالقضاء، (ولن تحصوا) ثواب الاستقامة ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾⁴³، أو لن تطيقوا أن تستقيموا حق الاستقامة لعسرها، أو لن تطيقوها بقوتكم وحولكم وإن بذلتكم جهدكم بل بالله، أو استقيموا على الطريق الحسنى وسددوا وقاربوا فإنكم لن تطيقوا الإحاطة في الأعمال ولا بد للمخلوق من تقصير ومكّل وكأن القصد به تنبيه المكلف على رؤية التقصير وتحريضه على الجد لئلا يتكل على عمله.. واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة" أي: فإن لم تطيقوا ما أمرتكم به من الاستقامة فحق عليكم أن تلتزموا بعضها، وهو الصلاة الجامعة لكل عبادة، من قراءة وتسيب وتكبير وتهليل وإمساك عن كلام البشر والمفطرات، وهي معراج المؤمن ومقربته إلى الله تعالى، فالزموها وأقيموا حدودها سيما مقدمتها التي هي شطر الإيمان فحافظوا عليها، فإنه لا يحافظ عليها إلا مؤمن راسخ القدم في التقوى⁴⁴.

ويستخلص مما سبق أن الاستقامة ليست بالأمر الميسر لكل مسلم، ولكن هذا لا يعني التفريط فيها، بل على الإنسان أن يسعى لتحقيقها أو على الأقل مقاربتها. لأن المطلوب من العبد الاستقامة. وهي السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: «لَنْ يَنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدَّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْدُوا وَرَوْحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا»⁴⁵.

وقد تعددت الآيات والأحاديث التي تشيد بالاستقامة وتبشر من اتخذها منهاجا لحياته بالفوز في الدارين مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾⁴⁶. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾⁴⁷.

وقد كان من منهج النبي (ﷺ) أيضا استغلال الأوقات المناسبة لبيان أهمية الاستقامة في الحياة فعن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل

43 - سورة النحل: 18.

44 - المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، 1/ 497.

45 - صحيح البخاري، رقم: 6463، باب القصد والمداومة على العمل، 8/ 98.

46 - سورة هود: 112.

47 - سورة فصلت: 29.

عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ - قَالَ: "قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، فَاسْتَقِمَّ"⁴⁸. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ أَرَادَ سَفَرًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي. قَالَ: «اعْبُدِ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زِدْنِي. قَالَ: «إِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زِدْنِي. قَالَ: «اسْتَقِمَّ وَلْتَحَسِّنْ خُلُقَكَ»⁴⁹.

فالاستقامة لا تحصل إلا باتباع أوامر الله تعالى ورسوله واجتناب نواهيها، والتحلي بمكارم الأخلاق وحسن تنزيلها على أرض الواقع، حتى يستفيد الناس من آثارها الإيجابية، وكيف الأذى عنهم.

ومن نماذج استقامة الصحابة ما ورد عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيِي عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيِي عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ⁵⁰.

وإجمالاً فإن الرسول (ﷺ) قد استطاع أن يربي جيلاً فريدا اتخذ من التوحيد والاستقامة منهجاً للحياة، فهانت عليه نفسه وأهله وأمواله في سبيل نشر الإسلام وبناء مجتمع متماسك وقوي. فـ "كان من أثر هذا المنهج تلك الأمة العجيبة في التاريخ. الأمة التي انتفضت من تراب الأرض فوصلت إلى السماء. والتي قامت من شتات متناثر لا يكاد يلتقي على غير الصراع والحرب، فإذا هي أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها في الأرض، تفتح وتغزو، وتعمّر وتبني، وتقيم

48 - رواه مسلم في صحيحه، رقم: 38، 13- بَابُ جَامِعِ أَوْصَافِ الْإِسْلَام. 65/1.

49 - الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، رقم الحديث: 7616، كتاب التوبة والإنابة، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، 4/ 272.

50 - رواه مسلم في صحيحه، رقم: 2750، بَابُ فَضْلِ دَوَامِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَجَوَازِ تَرْكِ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَالِاسْتِغَالِ بِالْذُّنُوبِ، 4/ 2106.

مثلا أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد، وتنتشر في سنوات قليلة في رقاع الأرض، تنشر النور والهدى، وتنشئ الحياة بإذن ربها من جديد⁵¹.

المطلب الثالث: المناهج النبوية في التكوين الروحي

من المنهج الوقائي الذي انتهجه الرسول (ﷺ) في تكوين الصحابة الكرام وتهذيب أخلاقهم وتقويم سلوكهم ما يلي:

الفرع الأول: الترغيب⁵² والترهيب⁵³

تنوع منهج الرسول (ﷺ) في التكوين الروحي وتبليغ الرسالة الأخلاقية، مختارا لكل موقف أو شخص ما يلائمه من الأساليب ومن ذلك: منهج الوعظ وما فيه من ترغيب في تطهير النفوس وإبعادها عن الحرام، وترهيب من العقاب الديني والأخروي.

فالترغيب والترهيب من الأساليب التي سعى من خلالها الرسول (ﷺ) إلى جذب القلوب للإقبال على الإسلام طمعا في مرضاة الله وخوفا من العذاب في الدنيا والآخرة.

ومن نماذج أسلوب الترغيب والترهيب ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ النَّاسِ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا أَخَذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا»⁵⁴.

وأيضا ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)، قَالَ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ سَقَلَ مِنْهَا قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ

51 - محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، في النظرية، 9/1 - 10.

52 - الترغيب هو: "وعد يصحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة مؤكدة خيرة، خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيء ابتغاء مرضاة الله، وذلك رحمة من الله لعباده". النحلاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها. ص 287.

53 - الترهب هو: "وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على إثم أو ذنب مما نهى الله عنه، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية، ليكونوا دائما على حذر من ارتكاب المفوات والمعاصي". النحلاوي، مرجع سابق، ص 287.

54 - رواه البخاري في صحيحه، رقم الحديث: 6483، باب الانتهاء عن المعاصي، 102/8.

حَتَّى يَغْلِقَ بِهَا قَلْبُهُ فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁵⁵ 56.

فقد أخبر (ﷺ) أنَّ الذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الحُتْم من قبل الله عز وجل والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلُك، ولا للكفر منها مَخْلَص، فذلك هو الطَّبع. والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾⁵⁷، نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلّها. فكذا لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصّف الله أنه ختم على قلوبهم، إلا بعد فضّه خاتمه وحلّه رباطه عنها⁵⁸.

ومن الترغيب والترهيب تذكير القوم بما هم عليه من نعم، وأن من شأن ذلك أن يدعوهم إلى طاعة الله تعالى الذي أنعم عليهم بهذه النعم، والتحذير من فقدهم لها إذا امتنعوا من الاستجابة وكفروا بالله، ومع زوال النعم نزول العذاب⁵⁹.

وخلاصة القول: أن المنهج النبوي قد جعل الترغيب والترهيب من أهم المناهج للتكوين الروحي؛ وذلك بتحييب كل ما يؤدي إلى طاعة الله تعالى في الأنفس من خلال وعد الملتزم بها بالخير في الدنيا والآخرة، كما رهب بسوء العاقبة لمن عصى وخالف التعاليم الإلهية.

الفرع الثاني: القدوة الحسنة

من أروع النماذج البشرية للجمال الإنساني خلقا وخلقاً نموذج محمد بن عبد الله (ﷺ) الذي اجتمعت فيه كل الفضائل؛ فكان كما وصفه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁶⁰. وقال

55 - سورة المطففين: 14.

56 - أخرجه الحاكم في المستدرک، رقم الحديث: 3908، باب: تفسير سورة المطففين، 2/ 562. «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» [التعليق - من تلخيص الذهبي] 3908 - على شرط مسلم.

57 - سورة البقرة: 6.

58 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، 1/ 261.

59 - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص 439.

60 - سورة القلم: 4.

أيضا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁶¹.

فكان ترجمة عملية حية لكل ما جاء في القرآن الكريم، ولذلك اختاره الله تعالى ليكون قدوة للعالمين. وكما هو معلوم أن الله سبحانه قد فطر الناس على افتقاد القدوة والبحث عن الأسوة، ليكون لهم نبراسا يضيء سبيل الحق، ومثالا حيا يبين لهم كيف يطبقون شريعة الله تعالى⁶².

وقد كانت القدوة من أبرز أساليبه (ﷺ) في التعليم والتكوين الروحي، فكان إذا أمر بشيء أو نهى عنه كان أول العاملين بذلك الأمر أو النهي. وقد كان هذا الأسلوب سببا في إسلام الجلندي ملك عمان، فعن ابن إسحاق أن النبي (ﷺ): بعث إليه عمرو بن العاصي يدعوه إلى الإسلام، فقال: لقد دلّني على هذا النبي الأمي، أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يهجر، وأنه يفي بالعهد، وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي⁶³.

فقد كان عليه الصلاة والسلام أفضل معلم للبشرية؛ إذ قدم أروع الأمثلة في التكوين الروحي وعلم المسلمين أمور دينهم بتطبيقها أمامهم مع طلب التأسي والافتداء به كالصلاة والحج وغيرهما من أمور العبادة وهو يقول "صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي"⁶⁴. ومعلوم أن جل أركان الإسلام جاءت مجملة في القرآن الكريم، لذا تولى النبي (ﷺ) تبيان كيفية أدائها بشكل عملي. ومنها الصلاة؛ فعن سهل بن سعد قال: وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ قَامَ عَلَيْهِ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ وَرَاءَهُ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ رَفَعَ فَتَنَزَلَ فَهَقَرَى حَتَّى سَجَدَ فِي أَصْلِ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ عَادَ، حَتَّى فَرَّغَ مِنْ آخِرِ صَلَاتِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتُمُوا بِي، وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي»⁶⁵. وكذلك علمهم كيف يؤدوا مناسك الحج، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَفَاضَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)

61 - سورة الأحزاب: 21.

62 - عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، ص 205.

63 - أحمد ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، 1/ 637.

64 - رواه البخاري في صحيحه، رقم 631، بَابُ الْأَذَانِ لِلْمُسَافِرِ، إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً، وَالْإِقَامَةَ، وَكَذَلِكَ بِعَرَفَةَ وَجَمْعٍ، وَقَوْلِ الْمُؤَذِّنِ: الصَّلَاةُ فِي الرَّحَالِ، فِي اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ أَوْ الْمَطِيرَةِ 1/ 128.

65 - رواه مسلم في صحيحه، رقم: 544، 10- بَابُ جَوَازِ الْخُطُوءِ وَالْخُطُوتَيْنِ فِي الصَّلَاةِ، 1/ 386.

وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ، وَأَمَرَهُمُ بِالسَّكِينَةِ، وَأَوْضَعَ فِي وَادِي مُحَسَّرٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرْمُوا الْجِمَارَ مِثْلَ حَصَى الْخَذْفِ، وَقَالَ: خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ؛ لَعَلِّي لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا"⁶⁶.

فقد كان رسول الله (ﷺ) نبراسا يهتدي به المسلم في فهم الوحي الإلهي، كما كان قدوة ومثلاً يحتذى في رجاحة عقله، وحسن سياسته، وتديبره، وقد تمثل ذلك في مواقف لا تعد ولا تحصى، منها على سبيل المثال لا الحصر: تنازله لقريش عن كتابة لفظة الرحمن الرحيم والاكتفاء بكتابة باسمك اللهم، وعن لفظ رسول الله والاكتفاء بمحمد بن عبد الله في كتابة وثيقة المعاهدة التي أبرمها مع قريش عام صلح الحديبية⁶⁷.

الفرع الثالث: القصة وضرب المثل

تنوعت مناهج سيد البشرية عليه أزكى الصلاة والسلام في التكوين الروحي وبناء شخصية المسلمين والارتقاء بالأخلاق والقيم. فكان مما استثمره (ﷺ) من أجل هذا الغرض أسلوب القصة وضرب المثل.

وللقصة في المنهج النبوي دور بارز في تكوين المسلمين، وفي استخلاص العبر والعظات، أو للاقتداء، مستندا في ذلك إلى ما تتميز به القصة من تأثيرها البالغ في النفوس والترويح عليها، وفي جذب الانتباه، وميل الأفتدة لسماعها وحفظها ولتقمص أحداثها وشخصياتها.

ومن هذه القصص التي كان نبي الله يتخول بها أصحابه قصة عن مؤمنين فتنوا في دينهم فأحرقوا وهم أحياء، قال تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾⁶⁸. فعَنْ حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأُثْنَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَنَّ

66 - رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم الحديث: 9524، - كتاب الحج - جامع أبواب دخول مكة - باب الإيضاع في وادي محسر، 204/5.

67 - نايف سالم العطار، مبادئ تعليمية للمدرسين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ص 432.

68 - سورة البروج: 4-6.

هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ" ⁶⁹.

ففي عرض قصص الأمم السابقة وما لقوه من أذى أقوامهم تقوية لعزيمة الصحابة ولصبرهم على أذى كفار قريش، وأيضا موعظة وعبرة لمن اعتبر من أصحاب العقول والقلوب السليمة.

الفرع الرابع: الاستفهام الاستنكاري

تنوعت المناهج التي اتخذها (ﷺ) في تكوين الصحابة ومنها الاستفهام الاستنكاري الذي يتبع منه استفزاز العقول على التفكير والتدبر في الآفاق وفي الأنفس وأيضا للتنفير من الأعمال التي تضيع ثواب الفرائض خاصة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟" قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: "الْمُفْلِسُ مِنْ أُمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عَرَضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْعُدُ فَيَقْتَتِلُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فِينَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ، أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطَرَحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَرَحَ فِي النَّارِ" ⁷⁰.

فكان للتكوين الروحي أثره البالغ في النفوس، حيث استطاع الرسول (ﷺ) بمعية المسلمين تجاوز مختلف الأزمات التي اعترضت نشر الدعوة الإسلامية، هذه الأخيرة لم تقب قاصرة على شبه الجزيرة العربية، بل تعدتها إلى المناطق المجاورة. والحمد لله رب العالمين.

69 - رواه البخاري في صحيحه، رقم: 3612، باب علامات النبوة في الإسلام، 4/ 201.

70 - ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، رقم: 8415، إسناده صحيح على شرط مسلم، 138/14 - 139.

الشمائيل المحمدية في الكتابات الأندلسية والمغربية

ذ. سعيد بنحمادة

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين -
مكناس.

يقصد بالشمائيل المحمدية، أو الشمائيل النبوية أو شمائل الرسول وفضائله صلى الله عليه وسلم، صفاته الخلقية والخلقية عليه السلام، وهي أحد مجالات السيرة بمعناها العام، التي يدخل فيها تتبع الأحداث التاريخية للنبي من ولادته حتى وفاته، ومراعاة التعاقب الزمني للوقائع.

وقد كانت هذه الشمائيل محط عناية من قبل الأندلسيين والمغاربة بمختلف اتجاهاتهم العلمية، رواية ودراية؛ فأبدعوا في موضوعاتها، تعريفها، وتصنيفها، وشرحها، ونظما، مما يشكل تيارا في تدوين الشمائيل، له سماته المعرفية والمنهجية. ومما يزيد من قيمة العطاء الأندلسي والمغربي في هذا الجانب، أنه لم يقتصر على العلماء، بل جلب اهتمام السلاطين أيضا¹.

أولا - الشمائيل المحمدية: التعريف والتصنيف

1- تحديد مفهوم الشمائيل المحمدية: يفيد التحديد اللغوي للفظ الشمائيل معنى كليا يرتبط بالإحاطة والشمول والتكامل والعموم؛ فالأمر الشامل هو الذي يعم كل الجوانب والأبعاد؛ والشميلة والشمول معناه اجتماع الأمر من جوانبه كلها، ومنه الشملة وهي الكساء الذي يلف الجسم كله ويغطيه.

1 - نذكر من ذلك السلطان مولاي عبد الحفيظ (1325 - 1330 هـ / 1908 - 1912 م)، الذي ألف كتاب "نظم الشمائيل المحمدية والسيرة المصطفوية". إدريس القيطوني، معجم المطبوعات المغربية، مطابع سلا، ص: 220. وعن المنجز الأندلسي والمغربي في الشمائيل المحمدية، يراجع: محمد يسف، المصنفات المغربية في السيرة النبوية ومصنفوها، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط1، 1412 هـ / 1992 م. الحسان حالي، الشروح المغربية على كتاب الشمائيل النبوية لأبي عيسى الترمذي (ت. 279 هـ)، منشورات مركز ابن القطان للدراسات والأبحاث في الحديث الشريف والسيرة العطرة - الرابطة المحمدية للعلماء، مطبعة أبي رقرق، الرباط، ط1، 1433 هـ / 2021 م.

والشَّيْئَلُ جمع شَمِيلَة وشِمَال؛ فشَّيْئَلُ الرَّجُل شَمِيلَتُهُ خَلِيقَتُهُ وَخُلُقُهُ وَخُصَالُهُ وَخُلَالُهُ وَحَالُهُ وَشَكْلُهُ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: "رَجُلٌ كَرِيمٌ الشَّيْئَلُ، أَي: فِي أَخْلَاقِهِ وَمَخَالِطَتِهِ، وَفُلَانٌ مَشْمُولُ الْخُلَاقِ كَرِيمُ الْأَخْلَاقِ"².

وَمِنْ ثَمَّ، وَحَسَبَ التَّعْرِيفِ اللَّغَوِيِّ لِلْفِظِ الشَّيْئَلِ، فَإِنَّ الشَّمُولَ وَالْإِحَاطَةَ وَالتَّكَامُلَ وَالْعُمُومَ يَرَادُ بِهِ تَعَدُّدُ الْجَوَانِبِ وَاكْتِمَالُهَا فِي الْإِنْسَانِ، فَتَعْدُو بِمِثَابَةِ هَيْئَةٍ تَزِينُ كَافَةَ شَخْصِيَّتِهِ وَتُظْهِرُ مَحَاسِنَهُ.

أَمَّا اصْطِلَاحًا فَالْمَقْصُودُ بِالشَّيْئَلِ الْمَحْمُودِيَّةِ الْعِلْمُ الَّذِي يَتَّخِذُ ذَاتَ الرِّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، خُلُقًا، مَوْضُوعًا لَهُ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ نَسَبُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَسْمَاؤُهُ وَكُنَاهُ وَفَضَائِلُهُ، وَصِفَاتُهُ، وَأَخْلَاقُهُ، وَتَصَرُّفُهُ، وَهَيَأَتُهُ وَعَوَائِدُهُ، وَخُصُوصِيَّاتُهُ وَبِرَكَاتُهُ، وَعُلُومُهُ وَمَعَارِفُهُ، وَحُقُوقُهُ، وَعِبُودِيَّتُهُ وَعِبَادَتُهُ، وَمَعَامِلَاتُهُ³.

وَبِذَلِكَ تَكْمُنُ فَائِدَةُ الشَّيْئَلِ الْمَحْمُودِيَّةِ فِي اعْتِبَارِهَا الْجَانِبَ الْعَمَلِيَّ لِلْإِسْلَامِ، بِمَا يَخْلُقُ الْاِقْتِدَاءَ لِلْمُسْلِمِينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁴. وَقَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁵. وَهِيَ دَلَالٌ تَرْسُخُ لَدَى الْأَنْدَلُسِيِّينَ الْمَغَارِبَةِ، كَمَا لَدَى الْمُسْلِمِينَ، نُبُوَّتُهُ، وَمَحَبَّتُهُمْ لَهُ وَتَعَلُّقُهُمْ بِهِ وَتَعْظِيمُهُ بِمَا يَزَكِّي الْعَقِيدَةَ وَالْإِيمَانَ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾⁶.

وَالْمُتَأَمِّلُ لِتَارِيخِيَّةِ كُتُبِ الشَّيْئَلِ الْمَحْمُودِيَّةِ يَلْحِظُ بَدَايَتَهَا فِي شَكْلِ مَوْضُوعَاتٍ مُوزَعَةٍ فِي مُصَنَّفَاتِ الْجَوَامِعِ الْحَدِيثِيَّةِ؛ إِذَا أَدْرَجَ فِيهَا مَا يَخُصُّ الْمَنَاقِبَ النَّبَوِيَّةَ وَالْفَضَائِلَ، وَأَسْمَاءَ الرِّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخْلَاقَهُ، وَقَدْ اسْتَفَادَ مَوْلُفُوهَا مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الَّتِي أَفْرَدَتْ لِذَلِكَ أَبْوَابًا خَاصَّةً. وَلِهَذَا اعْتَبَرَتِ الشَّيْئَلُ مِنْ عُلُومِ الْحَدِيثِ، وَمُلْحَقَاتِ السِّيَرَةِ⁷، وَلِذَلِكَ لَمْ يُوْرِدِ ابْنُ كَثِيرٍ (ت. 774هـ/1372م)

2 - جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، م 11، صص: 364-371.

3 - يراجع على سبيل المثال كتاب: جلال الدين السيوطي، أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، تحقيق عباس أحمد صقر الحسيني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 1416هـ/1995م، ص: 11، 26، 44، 49، 53، 59، 65، 78.

4 - الأحزاب: 21.

5 - القلم: 4.

6 - المؤمنون: 70.

7 - يذكر ذلك البخاري في صحيحه في "كتاب الأدب"، و"كتاب الاستئذان"، و"كتاب اللباس". كما يرد في صحيح مسلم في "كتاب البر والصلة والآداب"، و"كتاب فضائل النبي صلى الله عليه وسلم"، و"كتاب اللباس"، و"كتاب الزينة"، و"كتاب ==

باب السائل في كتاب "البداية والنهاية" إلا بعد فراغه من مباحث السيرة؛ فقال في هذا الشأن: "وهذا أوان إيراد ما بقي علينا من متعلقات السيرة الشريفة، وذلك أربعة كتب: الأول في السائل، والثاني في الدلائل، والثالث في الفضائل، والرابع في الخصائص"⁸.

غير أن التراكم المصطلحي والمنهجي والموضوعاتي الذي همّ العلوم الإسلامية أفرز تأليف مستقلة بالبحث في السائل والخصائص تنمّ عن ميلاد علم له ملامح معرفية؛ فهو يختلف -مثلا- عن كتب الحديث من حيث المنهج التصنيفي، وطريقة تخريج الأحاديث والحكم عليها⁹.

2 - تصنيف علم السائل: يشكل تصنيف العلوم عموما مبحثا منهجيا خاصا في البنية الفكرية في تاريخ الأندلس والمغرب؛ إذ يفيد في إدراك تطور المعرفة العلمية ومناهجها، وتوضيح حدودها، وعلاقاتها النسقية، كما يكشف مضمّنات فلسفة صاحب التصنيف والتي على أساسها المنهجي يحدد أصول العلوم وفروعها.

كما أن تصنيف العلوم يفيد في معرفة الشبكة العلائقية والأنساق العلمية للمعرفة ومدى ترابط العلوم فيما بينها وتدرجها. وبذلك فإن الاهتمام بمبحث تصنيف العلوم هو جزء من مباحث المنهج في دراسة تاريخ العلوم عند المغاربة.

ولذلك كثرت النماذج التصنيفية، منها ما ورد في "الرسائل" لابن حزم (ت. 456هـ/1063م)، و"طبقات الأئم" لصاعد الأندلسي (ت. 462هـ/1069م)، و"المقدمة" لابن خلدون (ت. 808هـ/1405م).

وبناء على ذلك فإن تصنيف العلوم يتخذ معنيين؛ أحدهما منطقي ويعني تبين الوحدة الكلية أو التشابه من خلال العملية الذهنية التي تستهدف شرح العلاقات بين الأجزاء؛ وثانيهما عملي يهّم ترتيب الأجناس العلمية وفروعها من حيث العموم والخصوص¹⁰.

== الزهد والرقائق". لمزيد من التفاصيل يراجع: موسوعة أحاديث السائل النبوية الشريفة، جمع وتصنيف همام عبد الرحيم سعد ومحمد همام عبد الرحيم، مجلة البيان، الرياض، ط1، 1433هـ/2012م، (ج1 و2).

8 - ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط7، 1408هـ/1988م، ج6، ص: 11.

9 - موسوعة أحاديث السائل النبوية، م. س، ج1، ص: 10، 11.

10 - سعيد بنحمادة، "تصنيف العلوم بين المشرق والمغرب خلال العصر الوسيط: نماذج مقارنة"، مجلة عصور الجديدة، إصدارات مختبر تاريخ الجزائر - جامعة وهران1/أحمد بن بلة - الجزائر، المجلد 7، العدد 27، صيف - خريف (أكتوبر)، 1438-1439هـ/2017-2018م، صص. 61-82.

ومن ثم يمكن اعتماد التصنيف الذي أقره الحسن اليوسي (ت. 1102هـ/1690م)¹¹ في كتاب "القانون"، باعتباره أنموذجا لتعامل علماء المغرب مع الشئائل المحمدية ووضعها ضمن مراتب العلوم، وكيفية تعلمها، وفضلها وقيمتها الفكرية والاجتماعية؛ فبعد أن فصل اليوسي في أحكام العلم، وأحكام العالم، وأحكام المتعلم، أجمل العلوم الإسلامية في أربعة عشر علما، "وهي كلها على العموم إسلامية، بمعنى أنها تتعاطى في ملة الإسلام، أو أنها يُتفَع بها في دين الإسلام، إما مباشرة أو بواسطة، وهي أيضا شرعية كذلك، والمشهور إطلاق الشرعية على المقصود لذاته وما قرب منه"¹².

ويتحدث اليوسي عن العلوم المتعلقة بالسنة، ويدرج فيها علم السَّير، وعلم المغازي، وعلم الشئائل، ويقصد به "خصوص أحوال النبي صلى الله عليه وسلم في خلقته الكريمة، وأخلاقه العظيمة، ومأكله وملبسه ونحو ذلك"¹³.

والخلاصة أن الجهود التصنيفية للعلوم، كما تبرز في أنموذج اليوسي، تهدف إلى محاولة البحث عن الكليات النسقية التي تؤطر علم الشئائل المحمدية في علوم السيرة، وعلاقتها بمختلف العلوم، وإرجاع ذلك كله إلى الأصول النبوية التي أفرزها (العلم الكلي) باعتباره نظاما شاملا للمعرفة، حتى لا تبقى الشئائل النبوية معارف جزئية، بل يجب ربطها بمبادئ العلوم الإسلامية وأصولها وأسسها، وفق نسق فكري شامل.

ثانيا- سمات التأليف في الشئائل المحمدية في بنية التأليف لدى الأندلسيين والمغاربة: حفلت الإستغرافيا الأندلسية والمغربية بالمصنفات التي اتخذت من الشئائل المحمدية موضوعا لها؛ فقد "صنف الناس في هذا قديما وحديثا كتبا كثيرة مفردة وغير مفردة"¹⁴، تباينت اتجاهات مؤلفيها ومناهجهم، إما بالتركيز على المعجزات والدلائل الشاهدة على صدق نبوته عليه السلام، أو الخصائص النبوية ويقصد بها حقوق الرسول على أمته وما يميزه عنه غيره، أو مولده صلى الله عليه وسلم.

11 - لمزيد من التفاصيل عن اليوسي، يراجع:

Jacques Berque, Al-Youssi: problèmes de la culture marocaine au XVIIème siècle, Centre Tarik Ibn Ziad pour les études et la recherche, Rabat, 2001.

12 - الحسن اليوسي، القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق حميد حماني، مطبعة شالة، الرباط، ط1، 1988م، ص: 177.

13 - المصدر نفسه، ص: 280.

14 - ابن كثير، البداية والنهاية، م. س، ج1، ص: 866.

ويضاف إلى ذلك القصائد الشعرية المعروفة بـ "المولديات" و "النبويات"، التي تعبر عن جهود الشعراء الأندلسيين والمغاربة في التعبير عن البعد الوجداني في محبة الرسول عليه السلام. علاوة على التأليف في فقه السيرة، ومناقب آل البيت وفضائل الصحابة وأخبارهم، لأن ذلك يعتبر في نظر الأندلسيين والمغاربة امتدادا للسيرة النبوية¹⁵.

وبذلك يعكس هذا التنوع خصائص "المدرسة الأندلسية والمغربية في السيرة النبوية"¹⁶، مما يستلزم دراسة ما تعلق بالشائيل المحمدية ضمن السياق الفكري العام المميز لبنية التأليف بالأندلس والمغرب، والمتسم بغنى المصنفات ذات المنابع المشرقية، ولا سيما كتاب "الشائيل النبوية والخصال المصطفوية" المعروف اختصارا بكتاب "الشائيل" للترمذي (ت. 279هـ/ 892م)، الذي يعتبر من أهم المصنفات التي حفل بها الأندلسيون والمغاربة، شرحا واختصارا ونظما، وسماعا، وقراءة، ومناولة ومكاتب، وإجازة، وبأسانيد عالية تصل إلى المؤلف¹⁷.

ولعل في الإشارة إلى كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض (ت. 544هـ/ 1149م)، وهو من النماذج القوية للمنجز المغربي في الحقوق والخصائص والشائيل النبوية، ما يغني عن التفصيل في أهمية "الشائيل" للترمذي بالأندلس والمغرب، واعتناء المشاركة بالعتاء الأندلسي والمغربي في السيرة المحمدية¹⁸.

15 - رشيد كهوس، "نماذج من إسهامات أهل المغرب في السيرة النبوية"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 35، تشرين الأول 2017م، م. ص: 270. وعن قصائد المولديات والنبويات، يراجع: عز الدين السلاوي، شعر النبويات في عصر بني مرين، (رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1987/1986م، (مرفوعة).

Ahmed Salmi, «Le genre des poèmes de nativité (Mawludiyya-s) dans le royaume de Grenade et du Maroc du XIII au XVIII siècle», Hesperis, Vol. 43, 1956, pp. 419- 423.

16 - كهوس، "نماذج من إسهامات أهل المغرب ..."، م. س، ص 270.

17 - ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م، 474، م4، ص: 508. المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، م2، ص: 665.

18 - من مظاهر الحضور القوي لكتاب "الشائيل" أنه عادة ما كان يرفق ذكره بأشعار المديح النبوي؛ ومن ذلك ما نظمه أبو عبد الله بن جابر محمد بن جابر الضرير (ت. 780هـ/ 1378م) موزيا بأسماء الكتب:

عراس مدحي كم أتين لغيره	فلما رأته قلن هذا من الأثفا
نوادر آدابی ذخيرة ماجد	شائيل كم فيهن من نكت تُلقي
مطالعها هنّ المشرق للعلا	قلائد قد راققت جواهرها رصفا
رسالة مدحي فيك واضحة، ولي	مسالك تهذيب لتنبه من أغفى
فيا منتهى سؤلي ومحصول غايتي	لأنت امرؤ من حاصل المجد مستصفي

وتشتمل الأبيات على التورية بعشرين كتابا، منها الشائيل للترمذي. المقري، نفح الطيب، م. س، م2، ص: 665.

كما نحسب أن كتاب "عيون الأثر في فنون المغازي والشئائل والسير" لأبي الفتح محمد بن محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمري الإشبيلي المصري (ت. 734/هـ 1333م)¹⁹ من المصنفات الأمهات القمينة بالاهتمام، للحديث عن مكانة الشئائل المحمدية في الكتابات الأندلسية والمغربية؛ فهو يعكس بنية التأليف في الشئائل المحمدية بالعدوتين، ومكانتها بالمشرق.

1- الخصائص المنهجية لـ "عيون الأثر": يعد الكشف عن مصادر الكتاب من السمات المعرفية التي تميز "عيون الأثر"؛ إذ ذكر ابن سيد الناس في آخر مصنفه المؤلفات التي استقى منها معلوماته، والأسانيد التي وقعت له من مؤلفيها عن الشئائل المحمدية، وهي صحيح البخاري (ت. 256/هـ 869م)، وصحيح مسلم (ت. 261/هـ 874م)، وسنن أبي داود (ت. 275/هـ 888م)، والجامع لأبي عيسى الترمذي، وسنن النسائي (ت. 303/هـ 915م)، وسنن ابن ماجه (ت. 273/هـ 886م)، والسيرة لابن هشام (ت. 218/هـ 833م)، والمغازي لموسى بن عقبة (ت. 141/هـ 758م)، والمغازي لأبي عبد الله بن عائذ القرشي (ت. 233/هـ 847م)، والطبقات الكبرى لابن سعد (ت. 230/هـ 844م)، والفوائد المعروفة بالغيلانيات لأبي بكر الشافعي (ت. 354/هـ 965م)، ومعجم الشيوخ لأبي الحسين بن جُميع الغساني الصيداوي (ت. 402/هـ 1011م)، والدرر في اختصار المغازي والسير لأبي عمر بن عبد البر (ت. 463/هـ 1070م)، والأنساب لأبي محمد عبد الله بن علي الرشاطي (ت. 542/هـ 1147م)، والشفة للقاضي عياض، والروض الأنف لأبي القاسم السهيلي (ت. 581/هـ 1185م)²⁰.

ومن نماذج الأسانيد التي وقعت له من المصنفين الذين أخرج من مؤلفاتهم ما أورده في مصنفه هذا، نذكر ما تعلق بكتاب "الشفة" للقاضي عياض، الذي قال بخصوص سنده: "وما كان فيه عن القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي؛ فمن كتابه المسمى بـ "الشفة بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم"، وقد سمعته كاملاً بقراءة والذي رحمه الله بمصر على القاضي

19 - عن ترجمة ابن سيد الناس، يراجع: ابن كثير، البداية والنهاية، م. س، ج 14، ص 169. تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1383/هـ 1964م، ج 9، صص: 268-272. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1349هـ، س 4، صص: 208-213. محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب العربي، القاهرة، د. ت، ج 2، صص: 249-251.

20 - ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشئائل والسير، تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحبي الدين متو، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة/دار ابن كثير، دمشق/بيروت، د. ت، ج 2، صص: 455-460.

الإمام عَلم الدين أبي الحسن محمد بن الشيخ الإمام جمال الدين أبي علي الحسين بن عتيق بن رشيق بمصر في سنة سبع وسبعين وستمائة [1278م]، قال: أخبرنا الإمام أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني سماعا عليه سنة تسع وستمائة [1212م]، قال: أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عيسى التميمي إجازة، أخبرنا القاضي عياض سماعاً²¹.

وبناء على ما استقاه من تلك المصادر، أقام ابن سيد الناس أسلوباً في التأليف لتفادي التطويل والاختصار؛ إذ يقول في ديباجة المصنّف: "لما وقفتُ على ما جمعه الناس قديماً وحديثاً من المجاميع في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه وأيامه إلى غير ذلك مما يتصل به، لم أر إلا مطيلاً مملاً أو مقصراً بأكثر المقاصد مخلاً؛ فالمطيل إما معتن بالأسماء والأنساب والأشعار والآداب، أو آخر يأخذ كل مأخذ في جمع الطرق والروايات، ويصرف إلى ذلك ما تصل إليه القدرة من العناية. والمقصر لا يعدو المنهج الواحد، ومع ذلك فلا بد وأن يترك كثيراً من الفوائد"²².

كما استند إلى "الجرح والتعديل" في التعامل مع ابن إسحاق (ت. 151هـ/768م) والواقدي (ت. 207هـ/822م)، مؤثراً الأسلوب الحجاجي للتصدي لمن طعن عليهما، معتبراً إياهما مرجعاً لكل من أعقبهما في الحديث عن السيرة النبوية؛ قائلاً في هذا الشأن: "وعمدتنا فيما نورد من ذلك على محمد بن إسحاق؛ إذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا،... وكثيراً ما أنقل عن الواقدي... أخباراً لعل كثيراً منها لا يوجد عند غيره؛ فإلى محمد بن عمر انتهى علم ذلك أيضاً في زمانه. وإن كان قد وقع لأهل العلم كلام في محمد بن إسحاق، وكلام في محمد بن عمر الواقدي أشد منه فسندكر نبذة مما انتهى إلي من الكلام فيهما جرحاً وتعديلاً؛ فإذا انتهى ما أنقله من ذلك أخذت في الأجوبة عن الجرح فصلاً فصلاً بحسب ما يقتضيه النظر ويؤدي إليه الاجتهاد"²³.

والملاحظ أن صاحب "عيون الأثر" ارتكز على منهج المحدثين، لأنه كان "أحد أعلام الحفاظ، وإمام أهل الحديث الواقفين فيه بعكاظ، البحر المكثّر، والحبر في نقل الآثار"²⁴. ومن تجليات ذلك المنهج ذكره للأسانيد المتكررة من كتب الأحاديث والسنن مرة واحدة عند انتهاء الغرض من ذلك

21 - المصدر نفسه، ج2، ص: 460.

22 - المصدر نفسه، ج1، ص: 51، 52.

23 - المصدر نفسه، ج1، ص: 54.

24 - السبكي، طبقات الشافعية، م. س، ج9، ص: 269.

المجموع، وأما الذي لا يتكرر فإنه يذكره عند ذكر ما أورده بها. وهي الطريقة التي عبر عنها في مقدمة "عيون الأثر" بقوله: "وأرحته من الإطالة بتكرار ما يتكرر منها، وذلك أني عمدت إلى ما يتكرر النقل منه من كتب الأحاديث والسنن والمصنفات على الأبواب والمسانيد وكتب المغازي والسير، وغير ذلك مما يتكرر ذكره، فأذكر ما أذكره من ذلك بأسانيدهم إلى منتهائها في مواضعه، وأذكر أسانيدي إلى مصنفي تلك الكتب في مكان واحد عند انتهاء الغرض من هذا المجموع، وأما ما لا يتكرر النقل منه إلا قليلا، أو ما لا يتكرر منه نقل مما حصل من الفوائد الملتقطة والأجزاء المتفرقة، فإنني أذكر تلك الأسانيد عند ذكر ما أورده بها، ليحصل بذلك الغرض من الاختصار وذكر الأسانيد مع عدم التكرار"²⁵.

ومن الخصائص المنهجية في الكتاب أيضا أنه يسرد أخبار السيرة حسب الترتيب الزمني، "سالكا في ذلك ما اقتضاه التاريخ من إيراد واقعة بعد أخرى، لا ما اقتضاه الترتيب من ضم الشيء إلى شكله ومثله"²⁶. باستثناء ذكره أزواج النبي عليه السلام وأولاده؛ إذ لم يحترم السرد الكرونولوجي، قائلا في هذا الصدد: "حاشا ذكر أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام؛ فإنني لم أسق ذكرهم على ما اقتضاه التاريخ، بل دخل ذلك كله فيما أتبعته به باب المغازي والسير من باب الحلي والشهائيل، ولم أستثن من ذلك إلا ذكر تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة، لما وقع في أمرها من أعلام النبوة"²⁷.

ومما يزيد "عيون الأثر" قيمة أنه مطرّز بمقطوعات شعرية تقتضيها مقامات الحديث عن الشهائيل المحمدية، ولذلك قال في المقدمة: "وقد أتحف الناظر في هذا الكتاب من طُرف الأشعار بما يقف الاختيار عنده، ومن نتف الأنساب بما لا يعدو حدّه، ومن عوالي الأسانيد بما يستعذب الناهل ورده، ويستنجد الناقل ضده"²⁸.

وحتى نتبين منهج ابن سيد الناس في "عيون الأثر"، نقف عند الفصل الخاص بـ "ذكر صفته صلى الله عليه وسلم"، الذي نستشف من خلاله علو السند، وحسن استثمار الكتب التي نهل منها،

25 - ابن سيد الناس، عيون الأثر، م. س، ج 1، ص: 53.

26 - المصدر نفسه، ج 1، ص: 53.

27 - المصدر نفسه، ج 1، ص: 53.

28 - المصدر نفسه، ج 1، ص: 53.

ولا سيما كتاب "الشفاء"، ومن ذلك قوله: "قرأ على أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن بن أبي الفتح الصوري وأنا أسمع بدمشق، أخبركم الشيخان أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن الكندي قراءة عليه وأنت تسمع، وأبو أحمد عبد الوهاب بن علي بن سُكينة إجازة، قالاً: أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن علي بن أحمد سماعاً عليه، زاد ابن سُكينة والحافظ أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي سماعاً، قالاً: أخبرنا أبو الحسين بن النُّقُور، قال ابن سُكينة: وأخبرتنا فاطمة بنت أبي الحكيم الحُبَري، قالت: أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن عمر بن المَسْمَلَة، قالاً: أخبرنا أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى بن الجراح الوزير، أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي، حدثنا عمر بن زرارَة، حدثنا الفيّاض بن محمد، عن عبد الله بن منصور، عن سعد بن طريف، عن الأصبع بن بُبَاة، عن علي، قال: كان الحسين بن علي يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم بأحاديث سمع بعضها منه، وسأله أن يُحَلِّيَ لنا النبي صلى الله عليه وسلم" ²⁹.

وبذلك شكل كتاب "الشفاء" نقطة ارتكاز للتفصيل في جزئيات الشئائل المحمدية، مما يظهر مكانة "الشفاء" في الكتابات المغربية من جهة، ومنهجية صاحب "عيون الأثر" في التصنيف من جهة أخرى، والذي ركّز في شرح الحديث المفصل في صفة النبي عليه السلام على ما أورده عياض.

وهكذا يورد ابن سيد الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "كان فخماً مفخماً، يتلأأ وجهه كالقمر ليلة البدر، أقصر من المشذب وأطول من المربع، عظيم الهامة، رَجَل الشعر، إن انفرت عقيقته فَرَقَ وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفَّرَه، أزهر اللون، واسع الجبين، أزجّ الحاجبين، سوابغ في غير قَرْن، أقنى العَرْنين، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشمّ، سهل الخدين، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيدٌ دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً، متماسكاً، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، وبعيد ما بين المنكبين، ضخّم الكراديس، أنور المتجرّد، موصول ما بين اللبّة والسرة، شعر يجري كالخطّ، عاريّ الثديين والبطن وما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمناكب وأعلى الصدر، طويل الزندين، سائل الأصابع، شَنّ الكفين والقدمين، سَبَطَ العظام، خَصَّانَ الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء صلى الله عليه وسلم" ³⁰.

29 - المصدر نفسه، ج2، ص: 424.

30 - المصدر نفسه، ج2، ص: 424، 425.

واحتراما للنهج الذي ذكره في المقدمة، لجأ ابن سيد الناس، كعادته في الكتاب، إلى شرح الألفاظ الغريبة الواردة في الأحاديث التي يوردها، مع إضافة بعض الفوائد الفريدة في آخر المواضيع، ومنها الحديث المذكور أعلاه، والذي أردف بعده كلاما في "ذكر فوائد تتعلق بهذا الحديث"، نقلها من الفصل السادس والعشرين من كتاب "الشفاء" في "تفسير غريب هذا الحديث ومشكله"، وفيه شرح للألفاظ المتعلقة بالشَّيْئَلُ المَحْمُودِيَّةِ، والواردة في الأحاديث ذات الصلة بصفة الرسول عليه السلام³¹.

والطريقة نفسها سلكها في الفصل المتعلق بـ "أخلاقه عليه أفضل الصلاة والسلام"³²؛ إذ استند إلى ما ذكره القرآن الكريم من شَمَائِلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها قوله تعالى في حقه عليه السلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾³³. والحديث النبوي الشريف الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم عن نفسه: ((بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ))³⁴. وقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ((إِنْ خُلِقَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ))³⁵. وهو ما فسره ابن سيد الناس بكونه "التأدب بآدابه، والتخلق بمحاسنه، والالتزام لأوامره وزواجره"³⁶. وأضاف إلى ذلك كله أحاديث تتعلق بحِلم الرسول عليه السلام، وعفوه، وصفحه، وسخائه، وشجاعته، وجُودِهِ، وحيائه، وصدقه، وحسن معاملته لأهله وصحابته، وشفقته، ووفائه، وتواضعه، وصدقه، ونظافته، وتعبده.

ومن ثم فإن أسلوب ابن سيد الناس في تدوين الشَّيْئَلُ المَحْمُودِيَّةِ هو ما جعل "عيون الأثر" محل تقدير من قبل العلماء، إما شرحا، أو نظما، أو تنبيها على أهميته. فمن الذين أشاروا إلى قيمة الكتاب نذكر تاج الدين السبكي (ت. 771هـ/1369م)، الذي قال في الكتاب وصاحبه: "صَنَّفَ الشَّيْخُ فَتَحَ الدِّينَ كِتَابًا فِي الْمَغَازِي وَالسَّيْرِ، سَمَاهُ (عَيُونُ الْأَثَرِ)، أَحْسَنَ فِيهِ مَا شَاءَ"³⁷. كما حلاه ابن كثير

31 - القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق عامر الجزار، دار الحديث، القاهرة، 1425هـ/2004م، ج1، صص: 104-

107. ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، م. س، ج2، صص: 427-431.

32 - ابن سيد الناس، عيون الأثر، م. س، ج2، صص: 434-444.

33 - القلم: 4.

34 - مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1417هـ/1997م، م2، ص: 450.

35 - مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1412هـ/1991م، (باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، حديث رقم 746)، ج1، ص: 138.

36 - ابن سيد الناس، عيون الأثر، م. س، ج2، صص: 424، 425.

37 - السبكي، طبقات الشافعية، م. س، ج9، ص: 269.

بقوله: "جمع سيرة حسنة في مجلدين"³⁸. وهو في تقدير ابن حجر العسقلاني (ت. 852هـ/1448م)، "كتاب جيد في بابهِ"³⁹.

أما شروح الكتاب فمنها "نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس" لإبراهيم بن محمد بن خليل الحلبي الشافعي، المعروف بسبط ابن العجمي (ت. 841هـ/1437م)⁴⁰. في حين نظمه كل من محمد بن يونس الشافعي (ت. 845هـ/1441م)، وفتح الدين النابلسي الذي تُسمى أرجوزته بـ "الفتح القريب في سيرة الحبيب". أما يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي (ت. 909هـ/1503م) فشرح غريب "عيون الأثر" في مؤلف عنوانه "اقتباس الاقتباس لحل مشكل سيرة ابن سيد الناس"⁴¹.

وهكذا يمثل "عيون الأثر" لابن سيد الناس أحد مظاهر اعتناء الأندلسيين والمغاربة بالشئائل المحمدية، لما أضفوه عليها من مفهوم جعلها ذات علاقة وطيدة بغيرها من العلوم، مما أكسبها غنى وجد صداه بالشرق الإسلامي.

2 - "نور النبراس" أنموذج لاهتمام المشاركة بـ "عيون الأثر" لابن سيد الناس: يعتبر كتاب "نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس" أو "نور النبراس في شرح سيرة ابن سيد الناس" للحافظ سبط ابن العجمي، الذي سبقت الإشارة إليه، من أهم شروح كتاب "عيون الأثر" لابن سيد الناس؛ إذ يقول في مقدمة الكتاب: "لما كانت سير سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثة لا يعرفها في بلدتنا إلا قليل من الناس، ومن استحضر منها شيئا كان عندهم من الفضلاء الأكياس، سبرت الكتب التي وقفت عليها في ذلك فألفت سيرة الحافظ أبي الفتح ابن سيد الناس أجمع سيرة استحضرها المحدث السالك، وذلك لأنه أربى فيها على جميع السير؛ فهنّ كالنجوم وهي بينهم كالقمر"⁴². مذكرا بطريقة ابن سيد الناس في التأليف، والذي ذكر في أولها ترجمتين لابن

38 - ابن كثير، البداية والنهاية، م. س، ج 14، ص: 169.

39 - العسقلاني، الدرر الكامنة، م. س، ج 4، ص: 209. الشوكاني، البدر الطالع، م. س، ج 2، ص: 250.

40 - سبط ابن العجمي، نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس، تحقيق إيناس خالد العبد الكريم المنيس، (أطروحة لنيل الدكتوراه)، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، 1433هـ/2002م، (من أول الكتاب إلى ذكر إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، (مرقونة). سبط ابن العجمي، نور النبراس في شرح سيرة ابن سيد الناس، تحقيق وداد يحيى أحمد عبد الجبار، (أطروحة لنيل الدكتوراه)، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، 1429هـ، (من بداية ذكر إسلام أبي بكر رضي الله عنه إلى جماع أبواب مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعوثة وسراياه)، (مرقونة). سبط ابن العجمي، نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس، تحقيق سعاد بنت صالح بن سعيد باقي، (أطروحة لنيل الدكتوراه)، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، 1425هـ/2005م، (من ذكر بعثته صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وغيرهم بالإسلام إلى نهاية الكتاب)، (مرقونة).

41 - الخطراوي ومتو، مقدمة تحقيق عيون الأثر، م. س، ج 1، ص: 8، 9.

42 - سبط ابن العجمي، نور النبراس، (تحقيق إيناس خالد العبد الكريم المنيس)، م. س، ج 2، ص: 3.

إسحاق والواقدي، وساق أغاليط وقعت في بعض الأحاديث مع ما فيها من الفنون، وإذا فرغ من الغزوة أو السرية أو البعث أحيانا يذكر ما في ذلك من غريب؛ فهي في المعنى كاملة لاستحضار المحدث الأريب. وقد اشترط فيها أن يذكر ما اقتضاه التاريخ إلا ما استثناه، ولم يخالف ذلك إلا في أماكن يسيرة يعرفها الأنباه⁴³.

يعتبر "نور النبراس" إذاً من كتب الحواشي الشارحة للمتون؛ فقد سار ابن العجمي فيه على اختيار العبارات من "عيون الأثر" والتعليق عليها، إما بتوضيحها، أو توثيقها، أو الاستدراك عليها، أو نقدها، أو تفصيل مجملها، أو التنبيه على ما فيها من لبس، وذلك بإيراد الكلمات والجمل من "عيون الأثر"، مستهلاً الكلام بعبارة "قوله"، ثم يشرع في شرح ما بدا له، مع التدقيق في النقل من خلال إرجاع الأقوال إلى أصحابها، والتصريح أحيانا بنقل ألفاظ النصوص أو معانيها، وإضافة فوائد وتنبيهات يذكرها بقوله: "فائدة"، و"تنبيه".

وزيادة في الشرح، يوضح الألفاظ الغريبة بضبط اللفظ، وتجليه معناه اعتماداً على كتب المعاجم وشروح السير، وإيراد بعض القواعد اللغوية التي تستقيم مع سياق الكلام، مع التعرض لبعض القضايا المصطلحية، وتدقيق الأعلام والتعريف بها، سواء من حيث الاعتماد على الحروف في المواضع المشككة، أو تمييز الراوي عن غيره بذكر اسمه وكنيته ولقبه، أو تصحيح أوهام العلماء في الرجال، أو ذكر من أخرج للراوي في كتب الحديث. غير أن طريقته في هذا الباب لا تسلم من بعض الملحوظات، منها تكراره لترجمة بعض الأعلام.

أما ما يميز منهجه في تخريج الأحاديث ونقد الروايات، فهو استدراكه على ابن سيد الناس في بعض ما فاتته في التخريج.

ولا يمكن فهم قيمة شرح سبط ابن العجمي لـ "عيون الأثر" إلا باستحضار مصادر كتابه "نور النبراس"، الذي اعتمد فيه على ذخيرة مصدريّة تتسم بالسعة والتنوع، تعامل مع مواردها بالأمانة في النقل والدقة في التوثيق⁴⁴.

وللوقوف على بعض تلك السمات المنهجية في شرح صاحب "نور النبراس" لـ "عيون الأثر" نورد النص التالي: "ذكر جمل من أخلاقه عليه أفضل الصلاة والسلام (تنبيه: هذا الباب كله أحاديث معروفة؛ ولهذا لم أعز منها إلا القليل، والله أعلم).

43 - المصدر نفسه، ص: 4.

44 - سبط ابن العجمي، نور النبراس (تحقيق سعاد بنت صالح بن سعيد باققي)، م. س، ق2، صص: 1112 - 1268.

قوله: رباعيته، الرباعية وزان الثمانية، وهي السن التي بين الشية والناب، ولم تنكسر من أصلها وإنما ذهب منها فلقة، وقد فعل ذلك عتبة بن أبي وقاص - مالك - بن أهيب، والصحيح لم يُسلم، وكان لا يولد له ولد إلا أبخر أو أهتم (كما ذكرت في أحد)، وكان ذلك يوم أحد كما سيأتي هنا.

قوله: وشج وجهه، تقدم أن الذي شج وجهه تقدم أنه عبد الله بن شهاب، تقدم بعض ترجمة هذا، وأنه جد الزهري العالم لأبيه وقيل لأمه، وقد أسلم.

قوله: لم أبعث لَعَّانًا، أبعث مبني لما لم يسم فاعله. وكذا قوله: ولكن بُعثت، والتاء مضمومة تاء المتكلم.

قوله: غَوَّرَ بن الحارث، هو بفتح الغين ثم واو ساكنة ثم راء مفتوحة ثم ثاء مثلثة، وقد تقدم بما فيه، ثم أسلم بعد هذه القصة وصحب رضي الله عنه.

قوله: آخذ، هو بمد الهمزة اسم فاعل، وهذا ظاهر.

قوله: عن اليهودية التي سمته بعد اعترافها على الصحيح، كان ينبغي للمؤلف أن يقول: عن اليهودية التي سمته على الصحيح بعد اعترافها، فإني لا أعرف خلافا في أنها اعترفت، وأما العفو ففيه خلاف، والصحيح أنه عفا عنها، لأنه كان لا ينتقم لنفسه، وقد تابع المؤلف في هذه العبارة القاضي عياض في الشفا، وهذه اليهودية اسمها زينب بنت الحارث بن سلام⁴⁵.

وخلاصة القول إن حضور الشمال المحمدية في الكتابات الأندلسية والمغربية يتجلى من خلال جهود العلماء في جمع أخبار الصفات الخلقية والخلقية للنبي عليه الصلاة والسلام، وتصنيفها، وتبويبها، وترتيبها للتعريف بما للرسول صلى الله عليه وسلم من شمائل، خلقا وصفة، وذلك تعبيرا من الأندلسيين والمغاربة عن شدة تعلقهم بالمصطفى عليه السلام، وهو ما يفسر رصانة المنهج ودقة التوثيق في التأليف، كما عرضنا لذلك من خلال كتاب "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير" لابن سيد الناس، وما لاقاه من اعتناء بالمشرق، ممثلا في "نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس" لسبط ابن العجمي.

45 - المصدر نفسه، ق2، صص: 1208 - 1211.

الشماثل النبوية بين الموريسكيين (الأندلسيين المتأخرين).

ذة. فريدة أحمد بنعزوز

كلية الآداب - تطوان.

اهتم المسلمون بشماثل رسولهم ورسول العالمين محمد صلوات الله عليه وسلامه، امتثالا منهم لما جاء فيها في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة، عن ضرورة التأسي به ومحبه¹. لذلك لم يقصروا أبدا في تخرج مختلف هذه الشماثل من بين تفصيلات سيرته الشريفة، للتعبد بذكرها وتذكرها، وللاستمتاع بكل ذلك. كما أنهم لم يقصروا أبدا في تصنيف المصنفات في الشماثل ذاتها، مما أدى إلى إنتاجهم لعلم مستقل الذات بها، من حيث موضوعه وتصوراته ومنهجه².

ولقد اندرج الموريسكيون، أو الأندلسيون المتأخرون، ضمن هذا التقليد الإسلامي، مثل غيرهم من المسلمين. غير أنهم تميزوا عنهم من أوجه عديدة، يتعلق أهمها، بدواعي عنايتهم بهذه الشماثل، وبما أنتجوه فيها من ممارسات دينية وثقافية مخصوصة. وهي الممارسات التي واجهوا بها إكراهات وجودهم، فيما بين القرن السادس عشر والسابع عشر بإسبانية، حيث اضطروا إلى إظهار النصرانية التي فرضت عليهم عنوة، وإخفاء الإسلام الذي منعوا منه. لذلك سنعمل في هذه المقالة على إبراز بعض مظاهر هذا التميز، من خلال مقارنة ثقافية لبعض نصوصهم الدالة على هذه العناية وعلى رهاناتها.

وقبل ذلك، فلا بأس من كلمة عن الموريسكيين. الموريسكيون هم مجموع المسلمين الأندلسيين الذين فضلوا البقاء بأندلسهم التي لم يكونوا يعرفون لأنفسهم أوطانا غيرها، بعدما استسلمت مملكة

1 - ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾، الأحزاب. 21. "فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ"، أخرجه محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، في الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ، كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، الحديث، 15.

2 - خالد بن قاسم الرادادي، "المدخل إلى علم الشماثل النبوية"، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد 36، العدد 2، 2020م، ص: 441-502.

غرناطة؛ بوصفها آخر مملكة لهم في 1492م للملكين الكاثوليكين: إيسابيل الأولى القشتالية، وفرناندو الثاني الأرغوني. وبذلك تحول هؤلاء الأندلسيون إلى رعايا لهذين الملكين اللذين عاهدوهم على احترام عقائدهم وشرائعهم وعاداتهم ولغتهم الخاصة، قبل أن ينكثا على نفسيهما؛ بإصدارهما في 1502م مرسوم التنصير القسري لما تبقى منهم بمملكتهما³. ولقد نتج عن هذا التنصير القسري الذي سيكتمل في 1525م، أن اخترعت إسبانية دال الموريسكي للتدليل على تحول هؤلاء المسلمين الأندلسيين، إلى نصارى جدد، بكل ما تضمنه من مضامين تحقيرهم ولمزهم به⁴. وبظهوره ظهرت المسألة أو المشكلة الموريسكية بالمملكة الإسبانية، أو بالأحرى، أوجدت هذه المملكة مشكلة عويصة لأفراد ومجموعات هذه الفئة من رعايتها وفرضتها عليهم. وذلك لأنها لم تقنع منهم بالنصرانية التي فرضتها عليهم، بل منعتهم من استخدام لغتهم العربية، ومن حماماتهم وملابسهم القومية، وطرائق إعداد أطعمتهم ومكوناتها، وكذا الاحتفال بمناسباتهم وبأفراحهم، وبالاحتفاظ بأسمائهم الأندلسية إلى غير ذلك من عوائدهم الثقافية العلمية والشعبية، لتعويضهم بنظائرها من العادات النصرانية والقشتالية، لتدمير هويتهم الإسلامية والأندلسية. وبطبيعة الحال، ما كان أمام هؤلاء المسلمين الأندلسيين إلا أن يلتفوا على ذاك التطهير الديني بإخفاء إسلامهم بقلوبهم، وإعلانهم، تقية، بأنهم قد أصبحوا نصارى، وإلا أن يقاوموا ما أمكنهم هذا التطهير الثقافي⁵. والواقع أنهم إذ لم يدخروا جهدا

3 - ضمن لويس دي المرمول كربيخال نصوص هذه البنود بكتابه عن ثورة موريسكيي غرناطة وعقابهم. وهو الكتاب الذي ترجم الجزء الأول منه الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي.

Marmol Carvajal. Luis del, Historia del [sic] rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada, Alicante, Edición digital, Biblioteca Virtual Miguel de Cervantes, 2001. 68-59

دي المرمول كربيخال. لويس، تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة، ترجمة وتقديم، جعفر ابن الحاج السلمي ومراجعة مصطفى عديلة، الجزء الأول، تطوان 1434هـ-2013م، ص: 143-160.

4 - لا بأس من التنبيه إلى أن هؤلاء لم يقبلوا أبدا التدليل على أنفسهم بهذا الدال؛ بل أصروا على تسمية أنفسهم والتعرف إليها بدال الأندلسي، أو الأندلس. وسم أحمد بن قاسم الحجري أهله بالأندلس، وبالأندلسيين، وببلادهم: بالأندلس؛ فكان يقول عن نفسه: "اعلم أيها السيد إنني أندلسي من الحجر الأحمر". وقال عن أهله "وإنما كانت القراءة بالعربية [...] ممنوعة لسائر أهل بلاد الأندلس"، ناصر الدين على القوم الكافرين وهو السيف الأشهر على كل من كفر، تحقيق وتقديم: بيتر شورف فان كوننكرفلد وقاسم السامرائي وخيرارد فيخرز، ترجمة جعفر ابن الحاج السلمي لمقدمة المحققين، مراجعة سلوى عزيز الوزاني، 1440هـ/2019م، ص: 68-69.

5 - ستعبر هذه المقالة بذاتها عن ضرب من الضروب اللامادية لهذه المقاومة. ويمكن التمثيل على المادية منها بالمعارك الحربية التي قام بها هؤلاء الموريسكيون على إسبانية فيما بين 1568-1571م. أرخ لهذه المعارك من المنظور الإسباني:

Marmol Carvajal. Luis del, Historia del [sic] rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada, op.cit.

وذلك في الوقت الذي لم تهتم الإسطغرافية الإسلامية بها. عجل الله بنشر أشغال ندوة: ثورة الأندلسيين بجهال البشرات جنوبي غرناطة. من البواعث إلى العواقب، التي نظمتها الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية بتعاون مع جمعيتي: مسار، وأنوار، يومي 7 و8 من يناير بالدار البيضاء.

في التشبث بدينهم الأصلي، وبثقافتهم التي يشكل هذا الدين خيطها النازم؛ فإن محاكم التفتيش وغيرها من السلطات الدينية والسياسية والمدنية النصرانية الإسبانية لم تقصر أبداً بدورها في سلخهم عن هذه الثقافة وذاك الدين، وإلحاقهم بدينها وبثقافتها، إلى أن اقتنعت، بعد انصرام ما ينيف عن قرن، بفشلها في هذا الأمر فبادرت إلى طردهم من بلادهم وإجلالهم عنها، فيما بين 1609م و1612م، كما هو معروف. ولقد توسلت مختلف هذه السلطات بوسائل عديدة لتحقيق هذه الأهداف التي كانت من أهمها: وسيلة إبطال نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بتقبيح صورته في عيون الموريسكيين، والنيل من شخصه ومن رسالته، إلى جانب حملهم عنوة على تصورهم لنبوة عيسى عليه السلام الذي يسند التثليث في عقيدتهم الدينية. لذلك انبرى هؤلاء الأندلسيون المتأخرون إلى مجادلة تلك السلطات للدفاع عن صحة هذه النبوة، وإلى الاعتصام بتعظيمه صلى الله عليه وسلم وبمحبه، وإلى التمسك بسيرته، والاحتفاء بشمائله ومولده، جاعلين من كل هذا وذاك وسيلة وسائلهم للتشبث بدينهم الإسلامي وبثقافتهم العربية⁶. يتبين هذا الأمر فيما أنتجوه من تقاليد كتابية وشفهية استوعبت تراثهم في مختلف هذه الموضوعات. فمن هذه التقاليد الأخيرة، إصرارهم على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والاحتفال على السلطات المذكورة لتخليد ذكرى نبهم صلوات الله عليه وسلامه عند إقامتهم لحفلاتهم الأخرى كالأعراس والعقيقة⁷. ومن أولى التقاليد ذاتها، نصوصهم في الشمال المحمدية التي تنضح بعقيدتهم في هذا النبي الكريم، وبشدة حبهم وتبجيلهم له، بما تضمنته من أوصافه وصفاته الخلقية والخلقية.

ولا بأس من الملاحظات والتنبيهات التالية في شأن هذه النصوص قبل التمثيل بمقتطفات دالة منها على تلك العقيدة وعلى هذا الحب والتبجيل.

لا شك أن ما ظهر من هذه النصوص لحد اليوم ليس إلا فيضا من غيث، مما يكون قد أنتجوه منها. فمن المعروف أن هؤلاء الأندلسيين قد اضطروا، خلال وجودهم بإسبانية، إلى إخفاء ما كان بين أيديهم من كتبهم الدينية بين تجايف جدران بيوتهم، لكيلا تقع بين أيدي محاكم التفتيش، التي لن تتردد في تدميرها وفي الزج بهم في غياهب معتقلاتها، حيث ستسومهم العذاب الذي قد يصل إلى

6 - تمت المنافحة عن هذه الأطروحة في: بنعزوز فريدة، "دفاع الموريسكيين عن صحة نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وتمسكهم بسيرته واعتصامهم بمحبته"، مجلة كلية الآداب بطوان، العدد 16، 2011، وكذلك في: الهوية الإسلامية للأدب الموريسكي: التصوف ومحبة الرسول ﷺ نموذجا، رسالة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب من إعداد: فريدة بنعزوز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بطوان، أبريل، 2019م.

7 - نفسه، ص: 25.

تحيقهم⁸. والأمر ذاته اضطرروا إليه كذلك عند خروجهم مطرودين من هذه البلاد، التي لم ينجحوا في أن يصطحبوا معهم إليها غير قليل من كتبهم. لذلك فإن الغالبية العظمى من نصوص الموريسكيين المعروفة اليوم قد تم العثور عليها عند هدم البيوت أو ترميمها بإسبانية.

ولا شك أنه كان على هؤلاء الموريسكيين أن يعتمدوا، مثل غيرهم من المسلمين، عند كتابتهم في الشمال الحمديّة: النصوص الأصلية للقرآن الكريم والحديث الشريف، وكتب أسلافهم في سيرته صلى الله عليه وسلم، وفي تاريخ فجر الإسلام، فضلا عن قصائد أمداحه المشهورة⁹. وبالفعل فلقد عولوا على مختلف هذه المتن، أو بالأحرى ترجماتهم الأحميادية لمختلف هذه المتن في قصيدة البردة¹⁰، غير أنه بالنظر إلى السياقات التاريخية والثقافية لوجودهم بإسبانية، المتمثلة، بصفة أساسية، في منعهم من استخدام اللغة العربية، فإنهم لم يعتمدوا غير ترجماتهم المتفرقة وفي أغلب الأحيان الجزئية لهذه المصادر إلى اللغة الإسبانية التي فرضت عليهم، قبل أن يجعلوا منها غنيمة حرب ويتخذونها لغة لهم، فرسموها، في غالب الأحيان بالحروف العربية، وفي بعض الأحيان، بحروفها اللاتينية الأصلية¹¹. وفي هذا المضمار، فلقد عولوا كثيرا على كتاب: الأنوار ومصباح السرور والأفكار وذكر نور محمد المصطفى المختار لأبي الحسن أحمد بن عبد الله البكري¹²، الذي لم يكتفوا بترجمته إلى الأحميادية، بل اصطنعوه بحيث أعادوا كتابته من جديد بالتوليف والتحوير، والحذف

8 - Isabel Pérez de Celosía de Rodríguez, "Moriscos sentenciados en los Auto de Fe del santo oficio de Granada: siglo. XVI", Actes du Ve Symposium International d'Etudes morisques sur : Le V Centenaire de la chute de Grenade, 1492-1992, Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisques de Documentation et d'Information, Zaghuan, 1993, 577-587.

9 - اعتمادهم لهذا المتن تم في الغالب على ترجماتهم، وترجمات أسلافهم الأندلسيين المدجنين الإسبانية والأحميادية لها. تمثل على ذلك بترجمتهم لقصيدة البردة المشهورة في مدحه صلوات الله عليه وسلامه.

10 - مخطوطة المكتبة الوطنية بمadrid بعنوان: "قصيدة الرداء المعروفة بقصيدة في مدح محمد [صلى الله عليه وسلم]". Poema de la Capa (conocido poema en alabanza de Muhammad), fragmento con traducción en aljamía, Ms 5377, ff. 1-16.

11 - فأما المكتوبة منها بالحروف العربية، فهي ما اصطالحوا عليها بالأحميادو Aljamiado، وتأتيه الأحميادية Aljamiada، أو اللغة الأعجمية Aljamia التي ورثوها عن أسلافهم الأندلسيين المدجنين، وتشبها بها بوصفها أهم رمز يصلهم بإضي أمتهم الإسلامية، التي تتعرف إلى نفسها في القرآن الكريم الذي رسمت الحروف العربية معانيه المقدسة، ويميزهم هوياتها عن أعدائهم النصاري الإسبان الذين يقتسمون معهم لغة الرومانس، أو الإسبانية. يراجع: فريدة بنعزوز، ومحمد عبد الواحد العسري، "مرشدة المهدي بن تومرت الأعجمية بين المدجنين بالأندلس"، أعمال الندوة الدولية: تحولات الفكر الأندلسي، الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تكرياً للدكتور محمد رزوقي، ص: 11-12. دجنبر 2014م، تنسيق: أ. د. جعفر ابن الحاج السلمي، تطوان، 1438هـ/2017م، ص: 41.

12 - تحقيق، عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006م.

والزيادة، والتقديم والتأخير. ولقد تم نشر بعض هذه الترجمات الجزئية لبعض فصول هذا الكتاب¹³. كما نظم مضامينه شاعرهم محمد ربضان في قصائد مطولة بالإسبانية، بقيت حية بين أحفاد الموريسكيين في تونس إلى القرن الثامن عشر¹⁴. ولا يعني هذا بأنهم قد اكتفوا بتلك الترجمات أو هذا الاصطناع، فالحق أنهم قد تمكنوا من أن ينتجوا، بصفة ابتدائية، كثيرا من النصوص في نبيهم ورسول العالمين محمد صلى الله عليه وسلم، من مثل قصائدهم في مدحه، التي سنقتطف من إحداها، بعض المقطوعات الدالة على عنايتهم بشائله صلوات الله وسلامه عليه. يتعلق الأمر بالقصيدة الموسومة بالمدحة في تمجيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي تم العثور على أول نسخة من نسخ مخطوطتها سنة 1795م، بتجويف عميق بحائط منزل متهدم بمدينة: أغريدا¹⁵ Agreda ليتم العثور بعد ذلك على نسختين أخريتين منها: بألموناسيد دي لا سيرة Almonacid de la Sierra¹⁶. وهي النسخ التي عرّف بها ودرسها وخرج مثنونها، المعتمدة في هذه المقالة، طرييو فوينتي كورنيخو¹⁷.

13 - Consuelo López-Morillas, Textos aljamiados sobre la vida de Mahoma: El Profeta de los moriscos, Consejo Superior de Investigaciones Científicas - Agencia Española de Cooperación Internacional, 1994, 61-92.

14 - جاءت هذه القصائد في 15166 بيت، أنشدت، فيما تغنت به، جميع الشائلا المحمدية كجماله صلى الله عليه وسلم، وقوته وشجاعته، وحلمه ورحمته وكرمه، وأمانته وحيائه وصدقه إلخ. ولقد نشرها خوسي أنطونيو لاسرطي لوبيث، ضمن نشره لمجموع ديوان هذا الشاعر الذي نظمته في 16676 بيت على قواعد عروض الشعر الإسباني في عصره الذهبي. كما قمنا بالتعريف بها وبصاحبها، ودرسناهما ضمن سياقات التاريخ الديني والثقافي للموريسكيين قبل خروجهم من إسبانية وبعد استقرارهم بتونس.

Mohamad Rabadan, Poemas. Canto de Las Lunas - Día del Juicio - Discurso de la Luz - Los Nombres de Dios. Edi. José Antonio Lasarte López, Zaragoza, 1991.

"ديوان الشاعر محمد ربضان في سياق المصير الموريسكي"، أشغال المؤتمر الدولي: المدجنون والموريسكيون في المصادر النصية والوثائقية. ذاكرتهم التاريخية في الوقت الراهن. تكريما للأستاذة الدكتور مارية خيسوس ييغيرا مولينس، تطوان، 2016م، إعداد وتنسيق: مصطفى عديلة، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2017م، ص: 251-271.

15 - محفوظة اليوم بمكتبة سان لورينثو ديل إسكوريال

Ms. San Lorenzo del Escorial, E. 1880, ff. 15v - 28v. 99v.

16 - محفوظتان بمكتبة طوماس نافرو بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية بمدريد.

Ms. San Lorenzo del Escorial, E. 1880, ff. 15v - 28v. 99v.

يراجع:

Toribio Fuente Cornejo, Poesía religiosa aljamiado-morisca. Poemas en alabanza de Mahoma, de Alá y de la Religión Islámica. Otros textos complementarios. Introducción, edición, estudio lingüístico y glosario, Madrid, 2000, 23.

17 - Toribio Fuente Cornejo, Poesía religiosa aljamiado-morisca, op. cit, 227-260.

أتى عنوان هذه القصيدة: بالمدحة، واضحا وصريحا في التقديم الذي خصها به مبدعها، الذي لهج قلبه قبل لسانه وقبل قلمه، بجميع أبياتها التي تنضح بمحبته للرسول صلى الله عليه وسلم، وتبجيله له واعتصامه به في ذكره، أو بالأحرى، إنشاده مولده وسيرته وشئائله ومعجزاته صلى الله عليه وسلم. وفي التقديم ذاته نبه الشاعر إلى أنه "قد أخذ هذه المدحة من أصلها العربي وترجمها إلى الأعجمية، لأن قراءتها أو الاستماع إليها سيكون ممتعا بهذه اللغة في هذه البلاد"¹⁸. لا شك أن هذه القصيدة قد راهنت على إنتاج هذه المتعة بين الموريسكيين عند تحليدهم ليلية المولد النبوي الشريف، ولغيرها من مناسباتهم الأخرى، التي كانوا يستغلونها لذكر نبيهم، صلوات الله عليه وسلامه، ومدحه. يتبين هذا الأمر في اقتسام الشاعر مع أهله إبداع هذه المدحة، عندما جعلهم يرددون جميعا معه في مطلعها، وعقب كل مقطع ينشده منها، بيتها الأول، أو ما يصطلح عليه: "بالعصا" في بنيات قصيدة المديح النبوي الشريف¹⁹.

"يا حبيبي يا محمد

والصلاة على محمد".

/Ya habíbi! ; Ya Muhammad!/؛

.Wa alssalátu 'alá Muhammad"

بعد هذه البداية، وبالنظر إلى فرط التبجيل وشدة المحبة التي تمتع بها هذا النبي الكريم بين أهل جلدة هذا الشاعر، الذي لا شك أنه قد استشعر جلال إقدامه على مدحه وجماله، فلقد أصر على تنبيه جمهوره على استحالة إحصاء ما أعطى الله تعالى وتبارك محمدا صلى الله عليه وسلم من صفات عليّة، عندما جعل من حبه وتشريفه له علة الوجود، والسبب في كل موجود.

"لا يمكن للقلوب

أن تحصي جميع النعم

وكل ما أعطي

18 - "Prencipia una Almadha de alabança al-anabí Muhammad/ sal.la al.lahu alayhi wa çal.lam./ que fue sacada de 'arabí en 'agamí/ porque fuese más placiente/ de la leir i- escoytar en-aquesta/ tierra", Toribio Fuente Cornejo, Poesía religiosa aljamiado-morisca, op.cit, 227.

19 - "البناء الشكلي للقصيدة النبوية"، موقع أهل المنتدى، <http://aliadagcity.ahlamontada.com/t59-topic>.

محمد

فرب العزة قد قال:

"لم أخلق الليل ولا النهار

ولا الظلمة ولا النور

إلا من أجل حبي العظيم لك يا محمد".

No podrían los coraçoones"

lonbrar todas las bendiçoiones

ni contar las donaçoiones

.que fueron dados a Muhammad

:Diso el Señor de la grandia

Yo no criara noje e nin dia"

ni escuredad ni luz con abria

.sino por el grande amor de Muhammad"²⁰

ومن بعد ما وَفَى الشاعر حق: "الثناء"، و"الميلاد"، و"المعجزات"، و"البوارق"، و"الصلاة"،
بوصفها أهم المكونات البنائية لمدحته النبوية، حقها من الأبيات والمقطوعات، استرسل في ذكر
شماله جامعا بين الخلقية والخلقية منها. فلقد ولد صلى الله عليه وسلم من قبس من نور إلهي انتقل
من ظهور الأنبياء والأولياء، إلى أن استقر فيه، وأضاءت الدنيا به.

"تقدم قبس من نور رائع

على جميع الموجودات [...]

انتقل هذا النور بين ظهور

الأنبياء والأولياء،

وبين أتقياء الذكور والإناث

إلى أن استقر في محمد.

يا حبيبي يا محمد

20 - Toribio Fuente Cornejo, Poesía religiosa aljamiado-morisca, op.cit, 235.

والصلاة على محمد.

وبعد خروجه إلى هذه الدنيا

حيث كانت الأرض مظلمة،

فأضاءت بعد ذلك

بنعمة محمد ورحمته.

يا حبيبي يا محمد

والصلاة على محمد".

Fue adelantado ante toda cosa,"

[...] una pella de luz muy ffermosa,

,los alnnabíes / Esta luz corrió por

,de lomo en lomo en los al/walíes

,fenbras i varones de los attaqíes

.fasta que quedó en Muhammad

Yá / habíbí! ; Yya Muhammad!

!Wa assalátu ´alá Muhammad.

,Como a l-addunya fue su salida

,falló la tierra escureçida

,e luego fue esclareçida

con la graçya de Muhammad.

Yá / habíbí! ; Yya Muhammad!

Wa assalátu ´alá Muhammad.!"²¹

ثم إنه لم يَرَقْ أحد من خلق الله كلهم إلى الاتصاف بصفاته الخلقية المعجزة؛ فلقد ولد ﷺ مختونا، ومقطوع الحبل السري²². وليس منهم من امتلأ مثله نورا ومعرفة، ولا من تتوج بتاج العلم، ولا يقظة الضمير.

21 . Toribio Fuente Cornejo, Poesía religiosa aljamiado-morisca, op.cit, 252.

22 - ولا يخفى ما في هذه الأبيات من كناية عن نظافته وطهارته الحسيتين من القاذورات والنجاسات، التي لم يسلم، ولا يسلم منها أحد من خلق الله.

"ومن نعمة الله عليك أن ولدت

مختونا، ومسرورا

ومقطوع الحبل السري،

فلم يصل إلى قدرك أحد

بفضل عظمتك يا محمد [...]

فمن امتلأ نورا وعلما،

وتوج بالعلم العلي،

وبالضمير الحي،

من غيرك يا محمد؟

يا حبيبي يا محمد

والصلاة على محمد".

Con graçya naçyo hatenado"

tanbién su onbligo tasado

persona no ubo llegado

[...] /por la alteza de Muhammad

Pleno fue de luz i de sabença

i corona de alta çencia

i cabdillo de conçencia

ninguno no más que Muahammad

/Ya habíbi! ; Ya Muhammad!;/

Wa alssalátu ´alá Muhammad"²³

ولا غرو، فلقد جمع هذا النبي الكريم ﷺ أفضل الشعائر الخلقية والخلقية التي تفرقت في غيره
من أنبياء الله ورسله عليهم السلام؛ فأعطي محيا آدم، ولغة إسماعيل، ولباس إبراهيم، وبشارة

23 - Toribio Fuente Cornejo, Poesía religiosa aljamiado-morisca, op.cit.,256

يعقوب، وجمال يوسف، وجميل محبة دانييل، وحسن تأويل صالح، وشرف عيسى النفيس، وقدرة سليمان، ومعرفة شيت، وطاعة هارون، وضمير إسحاق، وصبر أيوب، وقوة موسى، إلخ.

جمعت أفضل حظوظ الأنبياء،

فأخذت محيا آدم،

ولغة إسماعيل،

وتلك أعطياتك يا محمد،

يا حبيبي يا محمد،

والصلاة على محمد.

De lo annabies la buena ventura

del padre Adam la su fegura

de Içmail su lengua pura

estas donos a Muhammad

/Ya habíbi! ; Ya Muhammad!;/

Wa alssalátu ´alá Muhammad.

ووهبت لباس إبراهيم،

وبشارة يعقوب،

وجمال يوسف،

وكل هذا لك يا محمد.

يا حبيبي يا محمد،

والصلاة على محمد.

,De Ibrahim su vestidura

,de Ya'qub la su albriçadura

,de Yusuf la fermosura

.ttodos pertenesen a Muhammad

/Ya habíbi! ; Ya Muhammad!;/

Wa alssalátu ´alá Muhammad.

وأعطيت جميل محبة دانييل،
وحسن تأويل صالح،
وشرف عيسى النفيس،
وفيك اجتمعت جميع هذه الخصال يا محمد.

يا حبيبي يا محمد،
والصلاة على محمد.

De Daniel l'amor garaçiyoso
de Salih la dulce gloça
de Isa la onra pereçiosa
todo kabe en Muhammad
/Ya habíbi! ; Ya Muhammad!/
Wa alssalátu 'alá Muhammad.

وأخذت ملك سليمان،
وعلم شيت،

وطاعة هارون،
وأفضل ما أعطوا يا محمد.

يا حبيبي يا محمد،
والصلاة على محمد.

De çulyman el su poder
de Siit el su conoçer
de Harun el su obedeser
.i las menjorias a Muhammad
/Ya habíbi! ; Ya Muhammad!/
Wa alssalátu 'alá Muhammad.

ولك ضمير إسحاق الحبي،

وصبر أيوب الجميل، [...]

وقوة موسى العظيمة،

وشرف يونس ونبله،

وفخامة إلياس وسموه.

يا حبيبي يا محمد،

والصلاة على محمد.

,de Içhaq la buena conçensia

[...] de Ayyub la buena sufrençia

,De Musa Su garan fortaleza

de Yunaç su onrra i nobleza

.de Alyaç el sonsiego, el alteza

/Ya habíbi! ¡ Ya Muhammad!;/

Wa alssalátu 'alá Muhammad²⁴.

هذه بعض الشائلا المحمدية التي أنشدها هذا الشاعر في مدحته²⁵. لقد رام الدفاع بها عن صحة نبوة نبيه ونبي العالمين محمد صلى الله عليه وسلم، بين أهله الموريسكين، التي يشككهم فيها النصراني؛ فمثل هذه الصفات الخلقية والخلقية لا يمكن أن تجتمع إلا في النبي. ولا شك أن قد أراد بنظمها وإنشادها مع أهله المذكورين، ملأ قلوبهم بحبه صلوات الله عليه، وتعظيمه وتقديره حق قدره ومقداره العظيم بينهم، الذي يسهم في زيادة الإيمان به وبرسالته. والواقف على هذه الشائلا، وعلى شميعة النور منها بصفة خاصة، يتضح له أنه قد ثوى خلف إبداعها التصور الصوفي لشخص محمد ﷺ ولنبوته. وهو التصور الذي تلقوه من أسلافهم الأندلسيين القدماء، الذي بمقتضاه كان

24 - Toribio Fuente Cornejo, Poesía religiosa aljamiado-morisca, op.cit, 252.256-

25 - علما بأن لأهله الموريسكين نصوصا شعرية ونثرية أخرى في الشائلا ذاتها، أمطنا اللثام عن بعضها في دراساتنا التي أشرنا إليها آنفا. نسأله تعالى وتبارك البركة في العمر والقدرة لكي نعود إليها، مؤملين أن يقيد لها، كذلك، من يعتني بها من غيرنا.

هذا النبي نورا شع في الملاء الأعلى من قبل أن يوجد الله عز وجل بقية الموجودات الأخرى. فهو "إنسان عين الوجود والسبب في كل موجود"، على حد تعبير الإمام أبي محمد بن سليمان الجزولي²⁶. وإن شكل هذا التصور عقيدة أغلب المسلمين في نبيهم، فإن السادة الصوفية منهم قد دفعوا به إلى أقصى مداه، فتحدثوا عن هذا النبي صلوات الله عليه وسلامه بوصفه الإنسان الكامل²⁷. ثم إن الموريسكيين إن كانوا قد اندرجوا ضمن التصور الصوفي، لحاجتهم إلى تحصين أهل جلدتهم به من دعاوى النصارى الذين كان ديدنهم إنكار نبوة محمد ﷺ بينهم، والتنقيص من شأنه في عيونهم، فالحق أنهم كانوا قد اتخذوا من التصوف كذلك وسيلة أخرى للتمنع على تنصيرهم القسري، وللتشبث بهويتهم الإسلامية والعربية ومقاومة سلخهم عنها²⁸.

وجماع القول، لقد جاءت عناية الموريسكيين، بل الأندلسيين المتأخرين، بالشائيل المحمدية، وغيرها من موضوعات السيرة النبوية الشريفة، للتعبير عن حرصهم على توفية نبيهم صلوات الله عليه وسلامه حقه وقدره العظيم، ولتدبير الحرص ذاته، بوصفه وسيلة وسائلهم لإبقاء جذوة الإسلام متقدة بينهم، ومقاومة التنصير الذي كانوا يُخضعون إليه في كل لحظة وحين قبل إخراجهم من أندلسهم فيما بين 1609م و1612م. ولا غرو، فهم "القابضون على دينهم كالقابض على الجمر، على حد تعبير أحمد بن جمعة المغراوي الذي، دعاهم في فتواه إلى "مراعاة حقه [صلى الله عليه وسلم] بحسن إيمان وصدق"، ليجاوروه "في الفردوس الأعلى من جناته"²⁹.

26 - دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار ﷺ، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 1972م. يستند هذا التصور إلى الحديث الشريف: {إِنِّي لَعَبْدُ اللَّهِ مَكْتُوبٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ أَدَمَ لَمُنْجِدٌ فِي طَيْبَتِهِ وَسَأَنْبِتُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ : دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى وَرُؤْيَا أُمِّي رَأَتْ، وكذلك أمهات النبيين يرين، وإن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعتة نُورًا أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ السَّامِ}. أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، السفر الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ-1988م، ص: 80.

27 - فهذا الكبريت الأحمر ابن عربي يقول في حكمة النبي ﷺ: "إنما كانت حكمته فردية لأنه أكمل موجود في هذا النوع الإنساني، ولهذا بدئ به الأمر وختم: فكان نبيا وآدم بين الماء والطين، ثم كان بنشأته العنصرية خاتم النبيين"، أبو بكر محمد بن علي محيي الدين بن عربي، فصوص الحكم، بتعليقات أبي العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1946م، ص: 214.

28 - وتلك هي الأطروحة المركزية التي دافعت عنها فريدة بنعزوز في رسالتها لنيل الدكتوراه المذكورة أعلاه.

29 - أفتى أحمد بن جمعة المغراوي الموريسكيين بالبقاء في بلادهم على الرغم من غلبة النصارى عليهم واضطراهم إلى إظهار النصرانية عليهم، على أن يجتهدوا في التمسك بدينهم ونبيهم في بواطنهم ونياتهم. يراجع نص فتوى المغراوي في: محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة، 1966م، ص: 342-344.

مفالات عامة

على هامش سيرة الشيخ امحمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار: تاريخ وراث

ذ. أحمد الوارث

كلية الآداب - الجديدة.

اشتهر الشيخ امحمد بن سليمان الجزولي برحلتين شهيرتين؛ الأولى عبر المكان، استمرت إلى ما بعد وفاته. أما الرحلة الثانية فكانت في عالم الفكر، ما زالت مستمرة، إلى هلم جرا. وقد ارتبط اسمه، في الرحلتين معا، بكتابه الشهير: دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار. وكان للرحلتين امتدادات ظهرت آثارها بيّنة في الفكر والسياسية والفن.

1 - رحلة الجزولي: إبداعٌ متناهِ

للجزولي رحلتان؛ واحدة عبر المكان، قطع خلالها مسافات طويلة، ورحلة أخرى عبر مقامات الصوفية، كابد فيها مشاق طريق القوم، وقد أبدع فيهما معا.

1.1. رحلة الجزولي عبر المكان

بدأت هذه الرحلة من مسقط رأس امحمد بن سليمان الجزولي، في ربوع قرية (أيت مولاوي) جوار بومروان، المحسوبة على فرقة أيت عروس، إحدى فروع قبيلة إيداوسملال من جزولة، بجبال الأطلس الصغير الغربي، جنوب المغرب الأقصى¹. توج دراساته الأولية بحفظ القرآن وما ارتبط به

1 - *L. JUSTINARD, « Notes sur l'histoire du sous au XVI siècles - 1- Sidi Ahmed ou Mousa », Archives Marocaines, Vol XXIX. Honoré Champion Editeur, paris, 1933, p.1-230.p.109.

وراجع: خديجة الراحي، مساهمة في دراسة تاريخ الزاوية السمالية في مرحلة التأسيس: 853-971هـ/1460-1564م، رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرقونة، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 92-1993م، ص: 45، 52.

- أحمد بومزكو، "عروس (أيت)"، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1424هـ/2003م، مجلد 18، ص: 6044.

من متون في الفقه المالكي واللغة العربية، مما أهله للالتحاق بجامع القرويين في فاس². وكان حين مقامه بهذه الحاضرة نزىلا بمدرسة الحلفاويين، التي تعتبر أم المدارس المرينية وأقدمها، وكانت تحمل في البدء اسم المدرسة، فلما تعددت المدارس خلال القرن الثامن الهجري/14م، سميت باليعقوبية، نسبة إلى مؤسسها السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني الذي حكم ما بين 656 و1258هـ/1286م. وسميت كذلك بمدرسة الحلفاويين، نسبة إلى الحي الذي بنيت فيه، على الأرجح، وقد يكون للمدرسة علاقة بمسجد قديم يعرف بالحلفاويين، كان مزارا ينزل به أهل الفضل والصلاح. وقد سميت بعد ذلك بمدرسة الصفارين عند انتقال أهل هذه الحرفة إلى جوارها في فترة متأخرة³.



صورة رقم 1: باب مدرسة الحلفاويين (الصفارين) في مدينة فاس (أثناء إصلاحات 2016م).

== - أحمد الوارث، الطريقة الجزولية: التصوف والشرف والسلطة في المغرب الحديث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1431هـ/2010م، ص: 25-26 والهامش 28 بهما.

2 - أحمد الوارث، الطريقة الجزولية: التصوف والشرف والسلطة... مرجع سابق، ص: 27.

3 - عبد الهادي التازي، جامع القرويين - المسجد والجامعة بمدينة فاس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مجلد 2، 1973م، ص: 357. راجع أيضا: الحاج موسى عوني، "الحلفاويين - مدرسة"، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1421هـ/2000م، مجلد 11، ص: 3544-3545.

ظلت غرفة محمد بن سليمان الجزولي معروفة مشهورة⁴، ولا تزال كذلك إلى اليوم. ثمة أيضا حَجَرَة ناتئة مغروزة في جدار قاعة الصلاة، إلى الآن، عن يسار الباب، يقال إنها جلبت من مكة المكرمة⁵، وأن الجزولي اتخذها حَجَرَة للتيمم⁶، وهنا يكمن سر الاحتفاظ بها. بل لا تذكر مدرسة الصفارين إلا ويشار إلى اسمه وغرفته فيها.

للجزولي أيضا مع بيته في المدرسة حكاية معبرة عن سيرته حين كان طالبا، تداولتها الأقلام، نصها: إنه كان "يخلو فيه بنفسه لا يدخله معه أحد غيره، فبلغ ذلك والده، فظن، أو قيل له: لا يشده ويمنع من دخوله إلا لكونه له به مال، فقدم عليه، ثم طلب منه أن يُدْخِلَه ذلك البيت، فأجابه إلى ذلك، وأدخله إيّاه، فرأى حيطانه كلّها مكتوبا فيها: الموت، الموت، الموت. فعلم ما هُوَ فيه ولده، ورجع على نفسه باللوم، ويقول: أنظر أين هذا، وأين نحن؟ ثم تركه، وانصرف إلى بلده"⁷.



صورة رقم 2: غرفة الجزولي بالطابق العلوي في مدرسة الحلفاويين بفاس
(بتاريخ 14.12.2015م).

-
- 4 - محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسعاع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، تحقيق وتعليق عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1989م، ص: 34.
- 5 - عبد الهادي التازي، جامع القرويين... مرجع سابق، مجلد 2، ص: 357.
- 6 - المرجع نفسه، ملحق، ص: 574.
- 7 - محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسعاع... مصدر سابق، ص: 6.



صورة رقم 3: حجرة مغروزة في جدار قرب قاعة الصلاة في مدرسة الحلفاويين
(بتاريخ 14. 12. 2015م).

في مدينة فاس نفسها، عكف محمد بن سليمان على تأليف كتابه: دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار⁸. ويُذكرُ، في هذا الشأن، أنه جمع مادته "من كتب خزانة جامع القرويين، قاصدا فيه جمع المروي من ألفاظ الصلاة والسلام على النبي ﷺ، وعن غيره من فضلاء أمته والافتداء بهم والتبرك بأتباعهم"⁹.

لنا في تحليل اهتمامه بهذا الموضوع، وهو لا يزال بعد طالب علم، إشارة مهمة أوردها محمد المهدي الفاسي؛ قال فيها: "إن سبب جمعه له [يعني دلائل الخيرات] أنه شاهد من امرأة بفاس أمرا عظيما من خرق العادة، فسألها: بِمَ بلغتِ هذا؟ فقالت: بالصلاة على النبي ﷺ. فعكف على الصلاة على النبي ﷺ، وجمع كتابه المذكور"¹⁰. جاء في رواية أخرى أنه خاطبها بقوله: "أقسمت عليك بِمَ نلت هذه المرتبة؟ فقالت: بكثرة الصلاة على مَنْ كان إذا مشى في البر الأقفر تعلق الوحوش بأذياله، فحلف يميناً أن يؤلف كتاباً في الصلاة على النبي ﷺ"¹¹.

8 - المصدر نفسه، ص: 6.

9 - نفسه. وراجع: أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 32-33.

10 - محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسعاع... مصدر سابق، ص: 6.

11 - العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام بمن حل مراكش وأغمت من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1976م، ج. 5، ص: 84.

من فاس رحل إلى المشرق، على عادة من استطاع إلى ذلك سبيلا، قصد أداء المناسك ومواصلة التحصيل، فزار مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس¹²؛ ومما يذكر في تفاصيل رحلته أنه قضى ثلاث سنين أو أربعا في الحرم النبوي، معتكفا على قراءة كتابه: دلائل الخيرات¹³، عاد بعدها إلى المغرب الأقصى.

ما أن استقر به المقام، حتى رجع إلى فاس، قادما إليها من جنوب البلاد، وكان قد استكمل دراسته الفقهية والعلمية هذه المرة. مكث مدة، ثم شد الرحال إلى رباط آل أمغار في تيط - ن - فطر بساحل دكالة على شط المحيط الأطلسي، غير بعيد عن مدينة أزمو¹⁴. في رباط تيط صحب الجزولي الشيخ أبا عبدالله أمغار الصغير، في طريق القوم، مدة بلغت أربع عشرة سنة¹⁵، كمل فيها حاله، وحصل على الإذن من شيخه بتأسيس زاوية خاصة، فقصد مدينة أسفي، في بلاد عبدة، جنوب دكالة، وتصدر للمشيخة، واشتهر بالولاية والصلاح¹⁶. وما زالت آثار متعبده معروفة هناك تحمل اسم: خلوة سيدي محمد بن سليمان الجزولي؛ وهي من أهم المزارات بالبلدة.



صورة رقم 4: خلوة الشيخ الجزولي في مدينة أسفي (بتاريخ 30-03-2016م).

12 - Alfred BEL, La religion musulmane en Berbérie : esquisse d'histoire et de sociologie religieuse : établissement et développement de l'islam en berbérie du VII au XX siècle, P. Geuthner, Paris, 1938, p.379

13 - راجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام ... مصدر سابق، ج.5، ص: 92.

14 - أحمد الوارث، الطريقة الجزولية ... مرجع سابق، ص: 40-41.

15 - أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق علي عمر، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423هـ/2004م، ج.2، ص230. العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام ... مصدر سابق، ج.5، ص: 53.

16 - أحمد الوارث، الطريقة الجزولية ... مرجع سابق، ص: 44-45.

تسبب مقامه في أسفي في توتر العلاقة بينه وبين أولي الأمر في حاضرة عبدة، مما أرغمه على مبارحتها، فاتجه جنوباً، ونزل في موضع يسمى أفوغال من بلاد مطرازة ببلاد رجراجة، المعروفة اليوم بالشيظمة، فاتخذ بها زاوية جديدة. كما اتخذ الجزولي داراً ثانية في تانكرت بإيداوتنان إلى الجنوب من حاحا؛ فكان يستقر بها، ويذهب لأفوغال للإقراء، إلى أن مات بهذه الأخيرة مسموماً¹⁷.



صورة رقم 5: ضريح الشيخ محمد بن سليمان الجزولي في أفوغال
بالشيظمة (30-05-2012م).

لم تتوقف رحلة محمد بن سليمان الجزولي باغتياله عام 870هـ/1464م. إذ أنه لما توفي وضع شلوه عمرو المغيطي المدعو السيف، وهو من أتباعه، في تابوت، وذهب به إلى موضع يسمى تازروت في حاحا، وصار يحارب به خصومه عشرين عاماً متتالية، فلم يدفن إلا بعد وفاة السيف عام 890هـ، وأقبر الشيخ الجزولي في أفوغال¹⁸.

بعد دفنه بحوالي سبعين عاماً رفع سلطان مراكش، أحمد الأعرج السعدي، جثمان الجزولي من قبره، ونقله إلى مراكش ودفن بتربتها¹⁹، فهو معدود ضمن: سبعة رجال مراكش.

17 - راجع التفاصيل في: المرجع نفسه، ص: 48-58.

18 - نفسه، ص: 53-58.

19 - محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، دراسة وتحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1424هـ/2003م، ص: 273.

اللافت للانتباه أن الذين دفنوه بنوا فوقه جداراً، وبنوا قبة الضريح بجوار السور، وكأن في الأمر تشويشاً على من يريد الاهتداء إليه وسرقة²⁰. وليس من تفسير لهذا التشويش سوى حرص الأشراف السعديين على أن يكون الشيخ الجزولي هو ولي عاصمتهم الروحية والسياسية إلى هلم جراً²¹.

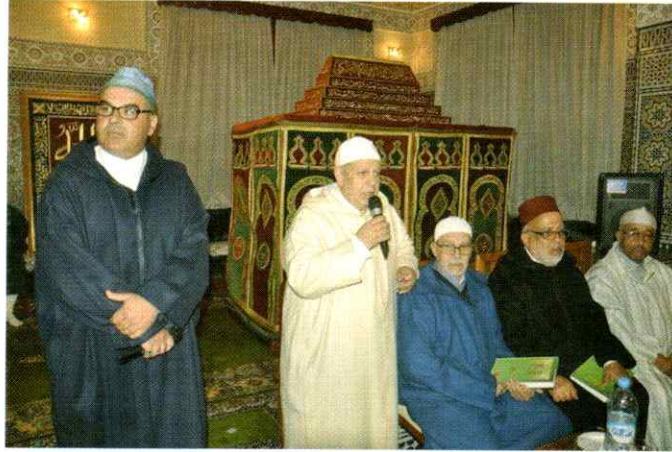


صورة رقم 6: كساء قبر الشيخ الجزولي في ضريحه بمدينة مراكش،

يرجع تاريخ وضعه إلى عام 1961م (بتاريخ 01 مارس 2018م).

20 - عبد المغيث بن سيدي محمد المصطفى بصير، التعريف الشمولي بالإمام الجزولي، دراسة مستوفاة لكتابه دلائل الخيرات، مكتبة الأحباب، دمشق، 1426هـ/1984م، ص: 83.

21 - أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 249.



صورة رقم 7: حفل تجديد كساء ضريح الشيخ الجزولي في مدينة مراكش
(بتاريخ 03 مارس 2018م).

إنها رحلة الجزولي في الزمان والمكان، ظهرت على هامشها معالم فنية وعمرانية من مستوى رفيع، سواء في المراكز التي درس فيها (مدرسة الصفارين) أم مرّ منها أم تصدر بها للمشيخة أم أقبر في تربتها (خلوة أسفي، مسجد أفوغال، ضريح مراكش...). فلا شك أن ارتباط اسمه بها كان له دوره في الحفاظ عليها قائمة والاعتناء بها على الدوام.

يعني هذا أيضا أن هذا الرجل لم يكن شخصا عاديا أبدا. أما سر هذا التميز في ربط أساساً برحلته الثانية في عالم الفكر التي انتهت به إلى مقام القطبانية في الصلاح والولاية، وخولت له وضع أسس طريقة صوفية متميزة، تماما كما كان لها امتداداتها في عالم الإبداع.

1. 2: رحلة الجزولي في عالم الفكر

أبدع محمد بن سليمان الجزولي مشروعا فكريا متميزا، أطلق عليها العارفون اسم: الطريقة الجزولية. هذه الطريقة غيرها من التيارات الصوفية تنشُد الصفاء الروحي، لكنها تتميز بدقائق وتفصيل رفعتها إلى مستوى الطرق التأسيسية. إنها تقوم على: مجاهدة التقوى؛ وقوامها العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، من جهة، والتفقه في أمور الدين، من جهة ثانية²². كما تقوم على مجاهدة الاستقامة؛ وطريقها: مجاهدة النفس، لتحقيق القرب من الله، وفيها مقامات، غيرها من الطرق.

22 - أحمد الوارث، الطريقة الجزولية، ص: 68.

إلى ذلك، تفرض الجزولية على سالك طريق القوم صحبة شيخ من شيوخ التربية، وتلح في الصحبة على ضرورة المعاشرة باعتبارها السبيل الأنجع لتدريب المريد على مجاهدة النفس وفطمها عن مألوفاتها، على أن يكون الشيخ عالماً عارفاً²³.

كما تتميز الجزولية بعنايتها أكثر بمقام التوبة حتى لقد سميت بها، وعرفت بـ: طريق التوبة، بحكم الرسوم والطقوس التي فرضها الجزولي على من همت نفسه الانخراط في الطائفة، كقص الشعر ودخول الخلوة والقيام فيها بما يرتبط بها من شعائر تعبدية. أما أساليب مجاهدة الاستقامة، بعد التوبة، فهي، بحسب المقامات المتبقية من الطريق: الورع، الصبر، الزهد والفقر، الخوف والرجاء، الشكر، التوكل، الرضا؛ وهي أساليب ذات سمات باطنية - نفسية²⁴. وهنا كان اهتمام الجزولي بمقام الزهد كبيراً، حتى إنه ألف فيه رسالة معروفة باسم: كتاب الزهد²⁵، معتبراً هذا المقام بداية الممارسة الفعلية في مجاهدة النفس بالنسبة للمبتدئين. في حين شدد في مجاهدة المتوسطين على مقام الخوف من غضب الله، وعبر عنه بأسلوب شعري معبر، قائلاً:

إِذَا شَهِدْتَ يَوْمَ الْعِقَابِ جَوَارِحِي *** فَكَيْفَ خَلَاصِي مِنْ ظُهُورِ قَبَائِحِي
إِذَا قَالَتِ الْعَيْنَانِ: تَذَكَّرْ سَاعَةً *** نَظَرْتَ بِهَا لِلْمُنْكَرَاتِ الْقَبَائِحِ
وَقَالَ لِسَانِي: كَمْ لَفَظْتُ بِبَاطِلٍ *** وَكُنْتُ إِلَى الْعِضْيَانِ أَوَّلَ رَائِحِ
وَقَالَتْ يَدَيَّ: كَمْ تَنَاوَلْتُ مَأْتِئاً *** فَوَا أَسْفِي إِنْ كُنْتُ غَيْرَ مُسَامِحِ
وَقَالَتْ لِي الرَّجُلَانِ مُحَرَّمٌ مَا *** مَشَتْ إِلَيْهِ وَلَمْ تَسْمَعْ مَقَالََةَ نَاصِحِ
فَإِنِّي إِلَى نَارٍ تَلْظَى وَقُودُهَا *** أُسَاقُ ذَلِيلًا خَاسِرًا غَيْرَ رَابِحِ
فَإِنْ مَنْ ذُو الْإِحْسَانِ بِالْعَفْوِ وَالرِّضَى *** نَجُوتُ وَإِلَّا كُنْتُ رَهْنًا قَبَائِحِي²⁶

غير أن الشيخ الجزولي، مثل كثير من الصوفية، رأى أن الخوف يجب أن يصحبه الرجاء في الله والثقة به في الوقت نفسه²⁷. وهذا ما يعرف في الطريقة الجزولية بعبادة الله خوفاً ورجاءاً، أي خوفاً

23 - أحمد الوارث، الطريقة الجزولية، ص: 80-83.

24 - نفسه، ص: 68-76.

25 - راجع: حسن جلاب، سبعة رجال مراكش وأدوارهم السياسية والتربوية والاجتماعية، منشورات المجلس العلمي الإقليمي، مراكش، 1427هـ/2003م، ص: 38.

26 - العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج. 5، ص: 83.

27 - أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 78.

وحبا، باستحضار جلال الله وكذلك جماله. لذلك قالوا إن: "الجزولية مبنية على الأخذ بكل ما يقرب إلى الله تعالى وتعلق الروح بمشاهدة الجلال والجمال..."²⁸. وقد آمن الجزولي بهذا النوع من السلوك، وبشر السالكين ببلوغ منزلة القرب من الله، المعبر عنه بمقام المنتهين أرباب التمكين، الموافق لمقام المشاهدة، حيث تستولي محبة الله على القلوب وتملؤها دون غيره، ويعبر عن هذه المنزلة بحال الفناء في الله²⁹.

الجزولية أيضا طريقة ذكر، بل يعتبر الذكر أهم وسائل الرقي في مقاماتها كلها³⁰. وقد حدد الشيخ الجزولي نفسه مبنى الذكر للسالكين، في قول مأثور عنه، نصه: "عليكم بذكر الله العظيم والصلاة على رسول الله ﷺ"³¹. وقال في نص آخر: "من شروط التائب أن... يداوم على ذكر الله تعالى والصلاة على سيدنا محمد ﷺ"³². أما مادة الذكر فهي الهيئلة (لا إله إلا الله)³³. ويذكر عن الجزولي نفسه أنه كان: "كثير الأوراد من ذكر الله"³⁴. ولعله كان يقرأ، قبل الشروع فيه، الاستغفار، كما جرى به التقليد عند أتباعه، وصيغته: "أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السموات والأرض وما بينهما من جميع ظلمي وجرمي وما جنيته على نفسي، وأتوب إليه توبة عبد ظالم لنفسه معترف بذنبه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، وأسأله التوبة والمغفرة والعفو والعافية والنجاة من النار، وكلمتي الشهادة على تحقيقها"³⁵.

مع ذكر الله العظيم، كانت الصلاة على رسول الله ﷺ ديدن الشيخ الجزولي، معتبرا إياها "من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب"³⁶. وينسب إليه، في هذا الصدد، قوله:

28 - عبد الرحمن الفاسي، أزهار البستان في مناقب الشيخ أبي محمد عبد الرحمن، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 583، ص: 110.
29 - راجع أقوال الجزولي في هذا الشأن، عند: محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسعاع... مصدر سابق، ص: 25. حسن جلاب، "الجزولية"، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1419هـ/1998م، مجلد 9، ص: 3018.

30 - راجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج. 5، ص: 86.
31 - محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسعاع... مصدر سابق، ص: 8.
32 - محمد ابن الموقت، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، تقديم وتحقيق حسن جلاب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1421هـ/2002م، ج. 2، ص: 309.
33 - عبد الحفيظ الفاسي، الترجمان المغرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، رقم 4400، ص: 29.
34 - راجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج. 5، ص: 85.
35 - عبد الحفيظ الفاسي، الترجمان المغرب... مصدر سابق، ص: 29.
36 - راجع: محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسعاع... مصدر سابق، ص: 8. عبد الحفيظ الفاسي، الترجمان المغرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، رقم 4400، ص: 27 ب.

عَوْدُ لِسَانِكَ كَثْرَةَ الصَّلَاةِ عَلَى *** مُحَمَّدٍ خَيْرٌ مَا بِهِ قَدْ اشْتَغَلَ
فَهُوَ الْمَصِيدُ بِهِ يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ *** فَاصْطَدَّ بِهِ الْخَيْرُ لَا تَصْطَدُّ بِهِ الْحِيلُ
وَدُمَّ عَلَيْهَا لَكِي مَا تَنْجُو مِنْ وَجَلٍ *** فِي الْقَبْرِ وَالْحَشْرِ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلُ
مَنْ فِي صَحِيفَتِهِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى *** مُحَمَّدٍ قَدْرُ سَطْرِ يَعْدِلُ الْجَبَلُ³⁷

بل اشتهر الشيخ الجزولي من بين سائر الصوفية بأنه كان " كثير الصلاة على النبي ﷺ "، وأن
" طريقته مبنية على ذلك " ³⁹. وبلغ الإكثار من التصلية في مجالسه مستوى الإغراق، وأضحى الأمر
عجيباً ولافتاً للانتباه ⁴⁰.

تبدو العناية بالذكر عموماً، والصلاة على رسول الله خصوصاً، أيضاً، فيما جمعه الشيخ الجزولي
من الأحزاب التي جعل منها وظائف مرتبة لنفسه وأهله ومريديه، اشتهرت كثيراً في بلاد المغرب بين
أهل الذكر. أبرزها: دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار⁴¹، وحزب الشيخ
المشهور بالحزب الكبير، ويسمى أيضاً حزب سبحان الدائم⁴²، ثم حزب الفلاح المعروف بالحزب
الصغير⁴³. وهذه معلومة مشهورة. كما وقفنا، مؤخراً، على مخطوط يتضمن أوراد أخرى له، غير
مشهورة، وهي مرتبة، عنده، بحسب الصلوات الخمس، كما يلي:

"أوراد الصبح: بسم الله الرحمن الرحيم (ألف مرة). قل هو الله أحد الرحيم (ألف مرة).
اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله (ألف مرة).

37 - عبد المغيث بن سيدي محمد المصطفى بصير، التعريف الشمولي بالإمام الجزولي... مرجع سابق، ص: 76.

38 - محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسماع... مصدر سابق، ص: 8. العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج: 5، ص: 86.

39 - العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج: 5، ص: 86. وراجع: محمد ابن الموقت، السعادة الأبدية... مصدر سابق، ج: 2، ص: 306.

40 - راجع: محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن... مصدر سابق، ص: 194، 197.

41 - توجد منها نسخ عديدة بمختلف الخزانات، منها قسم الوثائق من الخزانة الوطنية بالرباط، منها الأعداد: 1225ك، 1226ك، 1586ك، 1627ك.

42 - عبد الحفيظ الفاسي، الترجمان المغرب... مصدر سابق، ص: 29أ-ب، وبه نص الحزب (30ب).

43 - محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن... مصدر سابق، ص: 129. وراجع نص حزب الفلاح عند: الطاهر بن عبد السلام اللهوي، حصن السلام بين يدي أولاد مولاي عبد السلام، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1398هـ/1978م، ص: 554.

أوراد الظهر: بسم الله الرحمن الرحيم (ألف مرة). لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (ألف مرة). اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (ألف مرة).

أوراد العصر: بسم الله الرحمن الرحيم (ألف مرة). سبوح قدوس رب الملائكة والروح (ألف مرة). لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (ألف مرة). اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (ألف مرة).

أوراد المغرب: بسم الله الرحمن الرحيم (ألف مرة). والفاحة إلى آخرها (ألف مرة) قل هو الله أحد (ألف مرة). اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (ألف مرة).

أوراد العشاء: بسم الله الرحمن الرحيم (مائة مرة). سبحانك أنت الله جل جلالك (مائة مرة) سبحانك أنت الهمام عظم شأنك (مائة مرة) سبحانك أنت الله تقدست أسماؤك (مائة) اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (مائة مرة).

انتهت أوراد الشيخ. وهذا ما تقول عند تمام كل مائة: "يا حفيظ يا رقيب يا مغيث احفظني، يا حلیم يا رؤوف يا منان عليك اعتمادی، وكررها ثلاثا وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم" ⁴⁴.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله. الحزب الكبير من القرآن، سورة الملك وسورة السماء والطارق، وسورة الواقعة، وسورة الحديد إلى ﴿عليهم بذات الصدور﴾ ⁴⁵، و﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله﴾ ⁴⁶ إلى السورة. ﴿رب اغفر لي ولوالدي﴾ ⁴⁷ إلى السورة. ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ ⁴⁸ إلى السورة. و[سورة] ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ إلخ. وسورة الزلزلة إلخ. وسورة قريش إلخ. وسورة الكوثر إلخ. وسورة الكافرون إلخ. وسورة تبت يدا إلخ. ﴿إذا جاء نصر الله﴾ إلخ. و﴿قل هو الله أحد﴾ إلخ. والمعوذتين إلى آخرهما. انتهى. ويليه المسبعات العشر، الفاتحة سبعا، والمعوذتين سبعا، وآية الكرسي سبعا، وسورة الكافرون سبعا، والإخلاص سبعا، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبعا. اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما سبعا.

44 - أوراد الشيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، مخطوط رقم 565، ص: 1-2.

45 - سورة الحديد، الآية: 6.

46 - سورة الحشر، الآية: 18.

47 - سورة الجن، الآية: 30.

48 - سورة المزمل، الآية: 18.

اللهم اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات إنك مجيب الدعوات سبعا. اللهم وفهمني عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور رحيم جواد كريم رؤوف رحيم سبعا. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا وسبعين مرة. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم سبعا. بسم الله الرحمن الرحيم سبعا. اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما سبعا. أستغفر الله إن الله غفور رحيم سبعا. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبعا. لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير سبعا. نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة سبعا. نسأل الله الحفظ في الدين والدنيا والآخرة سبعا. نسأل الله اللطف في الدنيا والآخرة سبعا. نسأل الله الخير في الدنيا والآخرة سبعا. نسأل الله الفضل في الدنيا والآخرة سبعا. نسأل الله الفوز في الدنيا والآخرة سبعا. صلوات الله على جبريل ومحمد والخضر سبعا. والفاحة مائة مرة. الحمد لله رب العالمين. والشكر لله مائة مرة. انتهت المسبعة بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه⁴⁹.

تأكد العناية بالذكر أيضا إذا استحضرنا أن هذا الشيخ جعل أحزابه جميعها على وضع حرص من خلاله على مراعاة الطبوع والألحان والأوزان، "ولو كان ذلك على حساب سلامة اللغة وصحيحها"، مقلدا، في ذلك، كما يبدو، شيخ الطريقة الوفاية الشاذلية، أبا الحسن بن وفا، الذي وضع "حزبه المشهور على الألحان والأوزان اللطيفة تنشيطا لقلوب المريدين، وترويجا لأسرار السالكين"⁵⁰. يبدو، كذلك، أن الشيخ محمد بن سليمان الجزولي تَعَمَّد وضع كلامه مطاوعا للألحان، ابتغاء الهدف نفسه، من جهة، وحتى يكون الكلام منسجما مع الطبيعة "الطائفية" في الذكر جماعة، من جهة أخرى⁵¹، "لأنه إن كان الذاكرون جماعة فالأولى في حقهم رفع الصوت بطريقة واحدة موزونة... وأن يستمع بعضهم من بعض... لأن ذلك أكثر تأثيرا وأشد قوة في رفع الحجب عن القلب من ذكر واحد، وله أثر في القلوب شديد"⁵².

49 - المصدر نفسه، ص: 3-5.

50 - عبد الحفيظ الفاسي، الترجمان المغرب... مصدر سابق، ص: 31.

51 - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1989م، ص: 160.

52 - عبد الحفيظ الفاسي، الترجمان المغرب... مصدر سابق، ص: 31.

معلوم، أيضاً، أن أحمد بن سليمان الجزولي حرص على وضع الصلوات الواردة في الدلائل دون أسانيد. وقد أوضح ذلك في مستهل كتابه قائلاً: "الغرض في هذا الكتاب ذكر الصلاة على النبي ﷺ وفصائلها، نذكرها محذوفة الأسانيد ليسهل حفظها على القارئ، وهي من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب"⁵³. وللغرض نفسه وضعها على نسق يسمح بتقسيمها إلى ثلاثة أثلاث، وأربعة أرباع، وسبعة أسباع دون أن يمنع ذلك من شاء من قراءتها كلها في يوم واحد⁵⁴.

هكذا نجح الشيخ الجزولي في بناء طريقته على أسس واضحة، ولا شك أن مجهوده الفكري بلغ مستوى الإبداع، الذي جعل طريقته تأسيسية ومتميزة. زد على ذلك أنه لفت إليه أنظار الأجيال اللاحقة فاهتمت به وأبدعت على هامشه إبداعات شتى زادت غنى وثراء.

2 - اجتهادات الخلف: إبداع متواصل

كابد أتباع الطريقة الجزولية في سبيل الحفاظ على التراث الذي خلفه شيخهم، باعتباره الضمان للحفاظ على الطائفة الجزولية متراسة. من ثمة، اجتهدوا من أجل ترسيم سلاسل سندهم الصوفي، وسند شيخهم، لوصله بالسلف الصالح، ومن خلاهم بالرسول الكريم ﷺ، كما حاولوا تثبيت دعائم طريقته ومبادئها، مما أنتج على هامش هذا وذاك إبداعات أدبية وفنية رفيعة، تعد من التراث الخالد.

1.2 . إنتاجات فكرية وفنية

من حيث السند، وضعوا سلسلة أخذت تنتهي بهم إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي (ت. 656هـ/1258م). فيقال إن أحمد بن سليمان الجزولي: أخذ عن شيخه أبي عبد الله الشريف من بني أمغار، عن شيخه أبي عثمان سعيد الهرثاني، عن شيخه أبي زيد عبد الرحمن الرجراجي، المعروف بأبي زيد وإلياس، وقبره بوادي شيشاوة من عمل مراكش، عن شيخه أبي الفضل الهندي، عن شيخه عنوس البدوي راعي الإبل، عن شيخه أبي العباس القرافي، عن شيخه أبي عبد الله المغربي عن شيخه الإمام الأكبر القطب أبي الحسن الشاذلي⁵⁵.

53 - محمد بن سليمان الجزولي، دلائل الخيرات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1994م، ص: 13.

54 - العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج. 5، ص: 85-86. أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 91.

55 - محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، راجعه ورقم فهرسه عبد المجيد خيالي، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 1424هـ/2003م، ص: 13.

طرح العارفون بقضايا التصوف المغربي، على هامش هذا السند، مسألة غاية في الأهمية، منهم محمد المهدي الفاسي (ت. 1109هـ/1689م)، الذي قال: "إن شيخه [الشاذلي] وشيخه [مولاي عبدالسلام] من ذريته صلى الله عليه وسلم، فاجتمعت فيهما المحبتان الدينية والطينية فتضاعفت فيهما المحبة فاستمد أصحابه من مادة قوية جدا... والشيخ صاحب الترجمة [الجزولي] شريف أيضا... وكذا شيخه سيدي محمد بن عبدالله أمغار شريف أيضا... وكذا شيخ سيدي عبدالسلام بن مشيش أيضا شريف وهو سيدي عبدالرحمن بن الحسين الشريف العطار المدني الشهير بالزيات لسكناء بحارة الزياتين [بالمدينة المنورة]، فمن كان من هذه الطائفة الجزولية كان في سلسلته خمسة مشايخ شرفاء، أولهم شيخه سيدي محمد بن سليمان، وثانيهم شيخه سيدي محمد بن عبدالله أمغار، وثالثهم شيخ الطريقة سيدي أبو الحسن الشاذلي، ورابعهم شيخه القطب أبو محمد سيدي عبدالسلام بن مشيش وخامسهم شيخه سيدي عبدالرحمن المدني"⁵⁶.

لهذا الكلام مغزى كبير جدا لأنه يثير الانتباه إلى مكانة رجال السلسلة الجزولية - الشاذلية في السند الصوفي، وحضور الطيني، يعني النسب، وهو هنا رفيع (شريف ابن شريف)، إلى جانب الروحي فيها؛ يعني سنده في الأخذ (شريف أخذ عن شريف)، وهي رفيدة أيضا، ولذلك سمي هذا السند في مصادر التصوف المغربي بالسلسلة الذهبية⁵⁷.

معناه أيضا، استئناسا بكلام المهدي الفاسي، انتماء الشيخ ابن مشيش إلى هذه السلسلة الذهبية، بل تأسيسه لها في المغرب، وهي، كما يبدو، ليست سلسلة الأقطاب فحسب، بل هي سلسلة الأشراف أيضا. دون أن يغرب عن بالنا أنها مرتبطة في أصلها بالإمام الحسن بن علي بن أبي طالب. من ثمة يكون مولاي عبد السلام بن مشيش هو الواسطة في السلسلة الذهبية، وهي سلسلة الأشراف - الأقطاب، بين المغاربة والمشاركة، لأن السلسلة في شقها الثاني، ويسمى بعضهم السلسلة الروحانية⁵⁸، رجالها جميعهم مشاركة.

56 - محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسعاع... مصدر سابق، ص: 7-8.

57 - نقل الشيخ فتح الله البناني دفين الرباط، وهو درقاوي الطريقة، عن الشيخ محمد بن محمد بن مسعود المدغري الحاجي قبيلة، الفاسي دارا، الشاذلي طريقة، قوله: "لا تطلق سلسلة الذهب عند أهل الله إلا على أهل الطريقة الشاذلية، لأنها مسلسلة بالأقطاب، ومعنئة بهم".

راجع: محمد بن محمد المهدي التمساني، الإمام مولاي عبد السلام بن مشيش، ترجمته وبعض أقواله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1427هـ/2006م، ص: 90.

58 - راجع: المرجع نفسه، ص: 27.

في ثنايا هذا السند الصوفي إشارة أخرى غاية في الأهمية، هي أنه يجعل الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش قطب دائرة السند الجزولي، مما يجعله قطب التصوف المغربي برمته مقابل مولاي عبدالقادر الجيلاني قطب المشرق، وهي الفكرة التي ترسخت مع الجزولية منذ بداية الفترة المسماة: عصر التصوف في المغرب⁵⁹. والخلاصة هي تأكيد أتباع الجزولي وأتباعهم على أن سند شيخهم شاذلي - مشيشي⁶⁰. علما أن الذين اكتشفوا قبر ابن مشيش هم الجزوليون، وفي مقدمتهم كبيرهم في عصره الشيخ عبد الله الغزواني تلميذ التباع تلميذ الجزولي⁶¹.

فالسند، إذن، يحيلنا على أمرين هامين هما: ارتباط الجزولي بالشاذلية من خلال سلسلة الشرفاء الذهبية، لكن الشاذلية، في الوقت نفسه، تحولت إلى مجرد حلقة وصل بين الجزولية والشيخ عبد السلام بن مشيش الذي غدا بفضل الجزولية قطب المغرب. ولهذا الأمر أهمية قصوى باعتباره يحيل على تجربة مغربية أصيلة في الفكر الصوفي المغربي سبق أن سماها بعضهم محاولة مغربة التصوف، وسميناها: محاولة للربط بين التصوف والشرف، تجسيدا لحب الرسول ومحبة الأشراف.

أما على مستوى الطريقة؛ فقد صارت الجزولية امتدادا للشاذلية - المشيشية أيضا، وتحديدًا لها في الوقت نفسه. شاهد، من جهة، تلك النقاشات التي انخرط فيها الجزوليون دفاعا عن الاختيارات التي تبناها شيخهم سواء أكانت تهم عدة المريد أم الطريقة والأعمال، سيما منها الأعمال الجهادية لتحرير الثغور المحتلة، مما ساعد على تثبيت أركان الطريقة⁶². أما الشاهد الأبرز، من جهة ثانية، على مستوى الطريقة كذلك، فهو اعتناء الجزوليين بما خلفه الجزولي من أذكار. قال محمد المهدي الفاسي "كان الجزولي كثير الصلاة على النبي ﷺ، وذلك مبنى طريقه وطريق أتباعه، خصوصا كتاب شيخهم دلائل الخيرات؛ فقد كانوا مواظبين عليه ومعتنين به ومستصحبين له"⁶³، إلى جانب حزب الفلاح، وحزب سبحان الدائم⁶⁴؛ وهما من وضع الشيخ الجزولي كذلك، وأضافوا إلى ما سبق أذكارا أخرى تحاذي ما سبق حذو النعل بالنعل⁶⁵.

59 - راجع: أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 170.

60 - المرجع نفسه.

61 - محمد بن محمد المهدي التمساني، الإمام مولاي عبد السلام بن مشيش... مرجع سابق، ص: 32-33.

62 - راجع التفاصيل عند: أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 171-173، 181.

63 - محمد المهدي الفاسي، تمتع السماع... مصدر سابق، ص: 7. وراجع: محمد ابن الموقت، السعادة الأبدية... مصدر سابق، ج. 2، ص: 306.

64 - عبدالحفيظ الفاسي، الترجمان المغرب... مصدر سابق، ص: 29-29ب.

65 - راجع التفاصيل عند: أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 174-175.

لكن عنايتهم بكتاب «دلائل الخيرات» كانت أكثر؛ تفننوا في قراءته، وجعلوا للنص خواتم ومقدمات، زيادة في شأنه⁶⁶. فشاعت قراءته في الزوايا وفي البيوت والمساجد أيضا بين العشائين⁶⁷. كما بات ركيزة أساسية تتلى أذكاره بطرق إيقاعية ضمن فن الإنشاد والأمداح⁶⁸. أما المجاهدون المرابطون في الثغور فاعتادوا حمل «الدلائل» تبركا به، وكانوا يداومون على قراءته⁶⁹.

اتجهت اهتمامات أخرى إلى إبراز مناقب «الدلائل»، فحيكت حول تأليفه وقراءته وحمله حكايات وروايات، ونظمت في شأنه أشعار وأزجال، إبرازا لفضائله وبركاته ومكرماته⁷⁰. فقالوا، على سبيل المثال: إن "سبب جمع سيدي محمد بن سليمان لدلائل الخيرات، ... أنه مر بامرأة فوجدها تطير في جو السماء، فقال لها: بم نلت هذه المرتبة، فقالت له: بكثرة الصلاة على النبي ﷺ"⁷¹. وقالوا: "وسبب تأليفها أنه حضره وقت الصلاة، فقام يتوضأ، فلم يجد ما يخرج به الماء من البئر، فبينما هو كذلك إذ نظرت إليه صبية من مكان عال، فقالت له: من أنت؟ فأخبرها. فقالت: أنت الرجل الذي يُثنى عليك بالخير وتتحير فيما تخرج به الماء من البئر. وبصقت في البئر، ففاض ماؤها حتى ساح على الأرض، فقال الشيخ بعد أن فرغ من وضوئه: أقسمت عليك بِم نلت هذه المرتبة؟ فقالت: بكثرة الصلاة على مَنْ كان إذا مشى في البر الأقفر تعلقت الوحوش بأذياله، فحلف يمينا أن يؤلف كتابا في الصلاة على النبي ﷺ"⁷².

في الشأن نفسه يذكر أن الشيخ عبد العزيز التباع، خليفة الجزولي، ووارثه على رأس الطائفة الجزولية، كان يملك نسخة من دلائل الخيرات "مزبورة بخطه، وعلى ظهر النسخة المذكورة مزبورة بخط الجزولي، ما نصه:

66 - محمد بن عبد السلام بوسنة، بلوغ الآمال في ذكر مناقب السادات سبعة رجال، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1995م، ص: 159. وراجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج. 5، ص: 99، 101.

67 - راجع التفاصيل عند: أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 177-178.

68 - راجع: المرجع نفسه، ص: 181.

69 - راجع: نفسه.

70 - محمد بن عبد السلام بوسنة، بلوغ الآمال... مصدر سابق، ص: 153.

71 - العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج. 5، ص: 84.

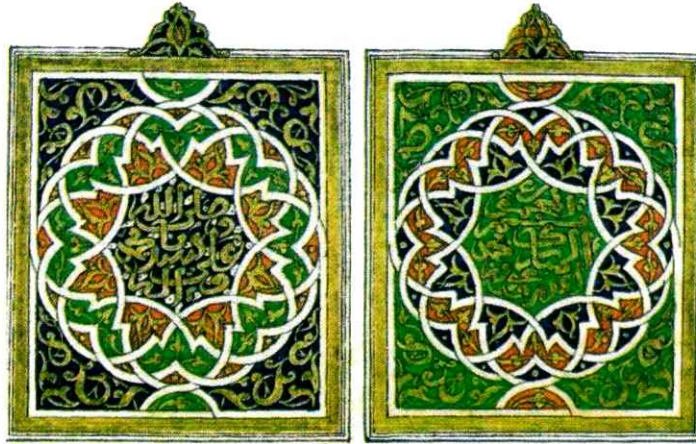
72 - أحمد الصاوي، الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية على الصلوات الدرديرية، تحقيق وتعليق وتخريج وإشراف محمد بن علي بن يوسف، منشورات مكتبة القاهرة، 1422هـ/2001م، ص 8. وراجع: محمد ابن الموقت، السعادة الأبدية... مصدر سابق، ج. 2، ص: 319-320.

كُتِبَتْ كِتَابِي قَبْلَ نَظْمِي بِخَاطِرِي *** وَقُلْتُ لِقَلْبِي أَنْتَ بِالشَّوْقِ أَعْلَمُ
فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ يَا كِتَابِي وَقُلْ لَهُمْ *** مَقَامَكُمْ عِنْدِي عَزِيزٌ مُكْرَمٌ⁷³.

من المناقب الواردة في هذا الشأن أيضا ما: "يحكى عن الشيخ الجزولي رضي الله عنه أن رائحة المسك توجد عند ضريحه وذلك من كثرة صلاته على النبي ﷺ⁷⁴.

إلى ذلك، اهتم المحبون بنسخ «دلائل الخيرات» فتنوعت الخطوط، وتكاثرت مخطوطاته في المكتبات العامة والخاصة، مغربا ومشرقا⁷⁵، وشمالا في مكتبات خارج ديار الإسلام، مثل: باريس، وبريل، وكمبردج، والفايتكان، ولاهور، وأكسفورد وغيرها⁷⁶.

صاحب ذلك تفنن الناسخين في كتابته وإخراجه، وتنوع أحجامه، وتزويق أوراقه، ورسم لوحات فنية على صفحاته. وقد وقفنا في الخزانة الوطنية بالرباط على تحف فنية رائعة من دلائل الخيرات ذات الأحجام الصغيرة. ودونك بعض النماذج:



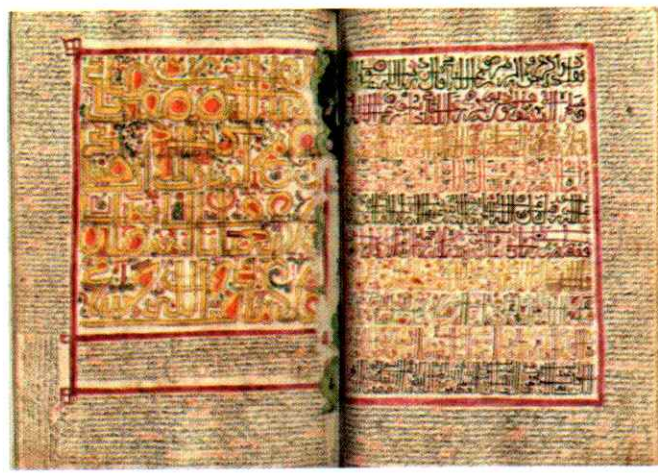
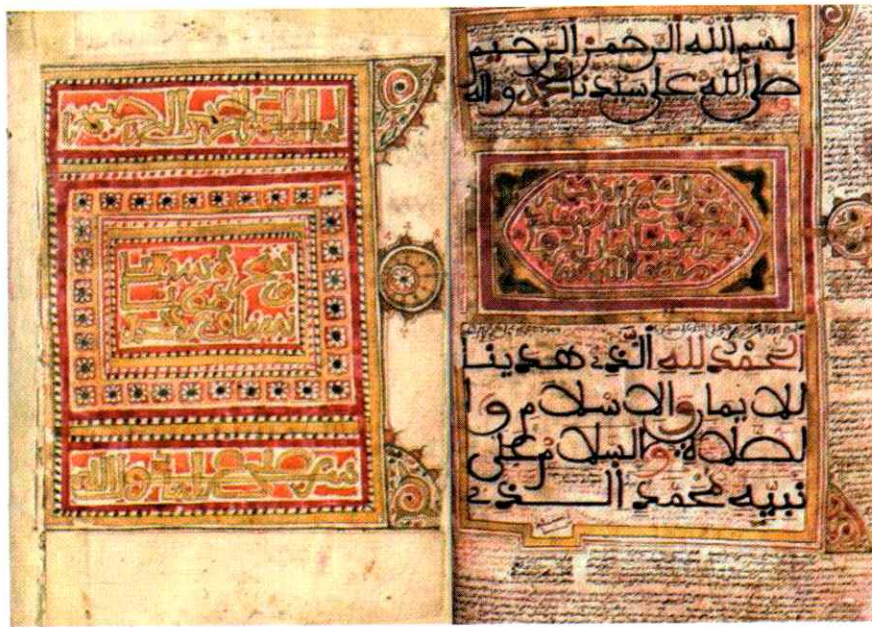
صورة رقم 9: صفحتان من كتاب دلائل الخيرات (مخطوط بالخزانة الوطنية، الرباط، رقم 356 ج).

73 - عبدالرحمن الملحوني، أضواء على التصوف بالمغرب، الطريقة العيساوية نموذجا، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، ج. 1، 2003م، ص: 236.

74 - محمد بن يوسف السنوسي، نصره الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير، تحقيق حسن حافظي علوي، سلسلة كتاب دعوة الحق، العدد التاسع، 1422هـ/2002م، ص: 105.

75 - عبد المغيث بن سيدي محمد المصطفى بصير، التعريف الشمولي بالإمام الجزولي... مرجع سابق، ص: 93.

76 - عبد العزيز بن عبد الله، سوس بوابة الصحراء، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م، ص: 77.

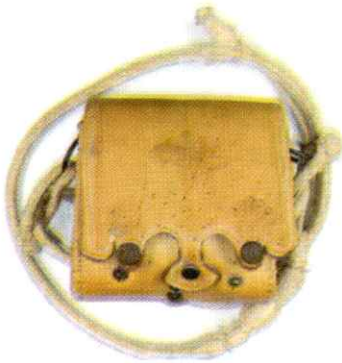




صور أرقامها 10-14: صفحات من دلائل الخيرات

(مصنفة ضمن المخطوطات النادرة بالخرانة الوطنية في الرباط)

امتد التفنن والتأنق إلى تفسير كتاب «الدلائل»⁷⁷، وصنعت على المقاس علب من فضة أو جلد بعضها مطرز بالحرير وخيوط الذهب لحفظ الكتاب. كما يبدو في هذه الأشكال البديعة:



77 - العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج. 5، ص: 91.



صور رقم 15-17: ثلاثة محافظ من جلد وحرير محفوظة في الخزانة الوطنية بالرباط

(رقم التصنيف Objets TN2)



صورة رقم 18: محافظ جلدية وفضية لدلائل الخيرات

(المعرض الدولي للفرس بمدينة الجديدة المغربية، سنة 2015م)

في السياق نفسه، تسارعت وتيرة إنتاج «الدلائل» بظهور الطباعة، حيث طبع الكتاب بفاس والجزائر والقاهرة وبيروت، كما طبع في ستراسبورغ وإستانبول ونيودلهي، مرات عديدة⁷⁸. كما قامت بعض دور النشر بطبعه وتوزيعه بالمجان⁷⁹، مما أسهم في تكاثر عدد نسخ «الدلائل» في ربوع المعمور⁸⁰.

78 - مادة: "الجزولي"، دائرة المعارف الإسلامية (المترجمة)، المجلد 6، ص: 448. وراجع: عبد العزيز بن عبد الله، سوس بوابة الصحراء... مرجع سابق، ص: 77.

79 - عبد المغيث بن سيدي محمد المصطفى بصير، التعريف الشمولي بالإمام الجزولي... مرجع سابق، ص: 93.

80 - طبع الكتاب على الحجر بفاس، مرارا وتكرارا. راجع: إدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني، معجم المطبوعات المغربية، مطابع سلا، 1988م، ص: 77.



صورة رقم 19: صفحتان من كتاب دلائل الخيرات (طبعة المطبعة الثعلبية، الجزائر، 1342هـ)

2.2. إنجازات تاريخية

حملت الجزولية تجديدات على مستوى السند والطريقة، لكن ذلك لم يكن سوى جزء من مشروع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، الهادف، على ما يبدو، إلى تخطي ما كان موجودا من هياكل سياسية في المغرب، خصوصا بعد أن تبين عجز سلاطين الدولة المرينية ثم الوطاسية عن مجارة الأحداث التي عجلت بسقوط المغرب في أزمة هي الكبرى في تاريخه، وجعلت البلاد والعباد عرضة للغزو الأوربي؛ البرتغالي والإسباني، إبان ما يعرف بالكشوفات الجغرافية الكبرى، بدأ من القرن 15م.

يفسر ذلك لماذا حظيت الدعوة إلى الجهاد بالأهمية في مشروع الجزولي. والمقصود هنا مقاومة الغزو البرتغالي والإسباني للسواحل والثغور المغربية إبان المرحلة الاستعمارية التي واكبت الكشوفات الجغرافية؛ فقد رتب الشيخ الجزولي جهاد "الكفار"، كما سماهم، في مقام مجاهدة النفس. وعبر عن ذلك بوضوح في بعض أقواله، مثل: "دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله القاتلين أعداء الله"⁸¹. وهناك أخبار تقول إن الشيخ محمد بن سليمان الجزولي جاهد بنفسه

81 - حسن جلاب، الحركة الصوفية ودورها في ترسيخ روابط الوحدة (نموذج الجزولي)، ضمن: بحوث في التصوف المغربي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1416هـ/1995م، ص: 114. عبد المغيث بن سيدي محمد المصطفى بصير، التعريف الشمولي بالإمام الجزولي... مرجع سابق، ص: 54. عبد الإله لغزاوي، الممارسة الثقافية للزاوية الوزانية - معالجة في التفكيك والتركيب، رسالة جامعية، شعبة اللغة العربية وآدابها، مرقونة، خزانة كلية الآداب بالرباط، 95-1996م، ص: 94.

البرتغاليين، وأنه اتخذ من زاويته مركزا لحركته الجهادية⁸². يؤكد هذه الأخبار ما تعرض له من نقد بسبب "التعرض للأمور الجمهورية كالجهد ورد الظلامات وتغيير المناكر بطريق القهر والافتقار دون يد سلطانية، ولأما يقوم مقامها من المراتب الشرعية، وفي ذلك فتح باب الفتنة وإهلاك المساكين ما لا خفاء فيه"⁸³.

في المقابل اهتم اللاحقون بالحماسة الجهادية في نشاط الجزولي⁸⁴، ولم يتردد بعضهم في اعتبار الجهاد عاملا حاسما في شهرته؛ بل رأى أحدهم أن السر في نجاح الحركة الجزولية هو اتخاذها موقفا عدائيا من الغزو الصليبي ودعوتها إلى الجهاد المسلح⁸⁵، وذهب آخر إلى القول بأن أصحاب الجزولي الذين كانوا يجوبون البلاد، كانوا يبشرون بالطريقة الجزولية، ويقومون في الوقت نفسه بالدعوة إلى الجهاد⁸⁶. لذلك، رجح باحث آخر أنه رغم الغنى الفكري الذي تميزت به الطريقة الجزولية، فإن نجاحها الحاسم بين المغاربة مصدره موقف شيخها من الغزو الصليبي⁸⁷. وقد أثار هذا الموقف الكتاب الأجانب فصنفوا الجزولي في لائحة شيوخ الإسلام المتشددين، من طينة مولاي عبد السلام

82 - محمد آيت الحاج، مظاهر الحياة الثقافية بحاجا، رسالة جامعية في اللغة العربية وآدابها، مرقونة، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1994م، ص: 46، 122.

وراجع: مولاي حسن كنفاني، قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرقون، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 87-1988م، ص: 76.

83 - ناقش الشيخ أحمد زروق هذا العمل، في تمة حديثه عن الطوائف الصوفية التي تعلق بالأعمال، فعددها، قائلا: "ومن ذلك التعرض للأمور الجمهورية كالجهد ورد الظلامات وتغيير المناكر بطريق القهر والافتقار دون يد سلطانية ولأما يقوم مقامها من المراتب الشرعية، وفي ذلك فتح باب الفتنة وإهلاك المساكين ما لا خفاء فيه، فقد كان ببلادنا رجل من الصالحين يحوم حول ما ذكرناه، فجاء من أخبره عن بعض جهات الروم أنها خالية وأنها مقدور على أخذها، ووقع له من ذلك ما حركه، فمشى بجماعة من المسلمين، فخرج عليهم النصارى فلم يجدوا فئة ولا ملجأ، فهلك منهم ما شاء الله في ذمته وذمتهم، مع ظنه أنه عمل خيرا وبرا نفعه الله بنيته، ولا أخذه بعمله، آمين" - عدة المريد الصادق: من أسباب المقت في بيان الطريق القصد وذكر حوادث الوقت، ضبطه وصححه وعلق عليه عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، ص: 34.

84 - Auguste COUR, L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les tures de la régence d'Alger (1508-1830), Ernest Leroux, Editeur, Paris, 1904.p.34

85 - Paul ODINOT, « Rôle politique des confréries religieuses et des Zaouïas au Maroc », Bulletin de la société de géographie et d'archéologies de la province d'Oran, Tome 51, 53année, Oran, Mars 1930, p.40 .

86 - المرجع نفسه.

87 - راجع: Paul ODINOT, Rôle politique des confréries religieuses art.cit.p.40

بن مشيش⁸⁸، واعتبروا أتباعه مجموعة من المتطوعين لحرب الصليبيين⁸⁹. بينما اعتبره الباحثون المغاربة أكبر وجه للجهاد ضد المد المسيحي في المغرب⁹⁰.

بناء عليه، يمكن القول إن الجزولية تجمعت منذ المهدي الغضب الشعبي من الاحتلال الإيبيري للغور المغربية، وحاولت تأطير العمليات الجهادية، أو ما يعرف بالجهاد الشعبي في البلاد، جاعلة العمل الصوفي مواكبا للعمل الجهادي، رابطة جهاد النفس بالجهاد في سبيل الله. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ذلك أن حب الرسول الذي قامت عليه الجزولية تبلور في حب الأشراف إلى حد الاعتقاد بأن الخلاص من الأزمة الكبرى لا يتأتى إلا بقيادة آل البيت للأمر في البلاد.

حاول الجزولي التصدي للأمر⁹¹، لكن اغتياله حال دون ذلك. وأعقبته محاولته عدة تجارب⁹²، كانت كل تجربة تكمل السابقة عنها إلى أن أفلح التحالف بين تلامذة الجزولي والأشراف السعديين في بناء دولة جديدة بالمغرب. إذ المعلوم في تاريخ المغرب أن الجزوليين هم الذين اختاروا الشريف محمد القائم بأمر الله وبايعوه أميرا للجهاد ثم ملكا، وارتبط الأشراف السعديون منذ أيامه بالجزوليين، سواء في الجهاد ضد الإيبيريين لتحرير السواحل المحتلة أم في العمل على توحيد البلاد التي ظلت مشتتة زهاء قرن من الزمن، علما أن هؤلاء الأشراف اختاروا، في خضم حركتهم، النزول بمحلتهم الكبرى قرب ضريح الشيخ الجزولي، حتى إذا توفي أميرهم القائم بأمر الله دفنوه بجوار قبر

88 - راجع: بول باسكون، الأساطير والمعتقدات بالمغرب... مقالة سابقة، ص: 98.

89 - L.C. JUSTINARD, «Notes sur l'histoire du sous au XVI siècles - sidi Ahmed ou Moussa », art.cit., p.110

90 - مصطفى ناعمي، "جزولة"، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1419هـ/1998م، مجلد9، ص: 3001.

91 - توحى بذلك قرائن عدة، على رأسها: دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، علما أن قصده منها ليس مجرد تغيير المنكر، بقدر ما كان طموحا إلى إحداث تغيير شامل في البلاد. يؤكد ذلك أن هذا الشعار كان مقرونا بشعارات أخرى ذات حمولة سياسية قوية، أهمها الولاية الكبرى والخاتمية والمهدوية والخضرية. ورغم أن الشيخ الجزولي رفض هذا النعت، فإن اتهامه به، من لدن خصومه، أو نعتة بها من قبل عامة الناس، لا يخلو من دلالة. لدينا في هذا الصدد شاهد آخر مؤكد لكل ما سبق، لم يعترض عليه الشيخ الجزولي، ولم يهاجم من نعتة به، بل لقد كان يدعو نفسه به، ويجب أن ينعت به، وهو التعز بالشراف. ومما يؤثر عنه في هذا الصدد أنه قال: "ليس العزيز من تعزز بالقبيلة وحسن الجاه، وإنما العزيز من تعزز بالشراف والنسب. أنا شريف في النسب، جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم". راجع التفاصيل عند: أحمد الوارث، الطريقة الجزولية... مرجع سابق، ص: 102-115.

92 - نخص بالذكر، هنا، إلى جانب تجربة السياف، والشيخ الحاحي، في حاحا، تجربة الشرفاء الأدارسة في فاس، التي انتهت بسقوط الدولة المرينية، لكن هذه التجربة لم تدم أكثر من سبع سنوات استعاد بعدها الوطاسيون حكم فاس ومملكته.

الشيخ المذكور نفسه، قبل أن ينقلوا جثمانيهما معا، ل يتم إقبارهما معا بالعاصمة مراكش، مما يشكل علامة بارزة في الارتباط الوثيق بين الجزوليين والأشراف السعديين.

يعني هذا أن مشروع الشيخ الجزولي يؤرخ لبداية عهد جديد في تاريخ المغرب الحديث، وكان ذا وجهين: فكري تمثل في إحياء تصوف مولاي عبد السلام بن مشيش الذي ظل قطب المغرب على الدوام، ووجه سياسي تمثل في بداية حكم الأشراف، وقيام ما يعرف بالدولة الوطنية، التي حملت اسم "المملكة المغربية الشريفة". ومن ثمة، ظل حضور الجزولي قويا في سياسة الأشراف السعديين وكذلك العلويين سواء على مستوى الحقل الديني أم السياسي.

كما ظل الجزولي حاضرا محتفى به في الأوساط الشعبية أيضا بالمغرب دوما من خلال ما يعرف بالتبوريدة، وهو فن عريق في فنون الفروسية، يلقي إقبالا كبيرا جدا من لدن المغاربة. إذ المعلوم أن الخيالة بعد ارتدائهم للملابس الخاصة بالمناسبة يعلقون في أعناقهم محافظ تحوي من بين ما تحويه: كتاب دلائل الخيرات للشيخ الجزولي، تبركا وتيمنا وطلبا للحفظ والأمان من جهة، وتقليدا للمجاهدين في حربهم على البرتغاليين والإسبان⁹³، وكأن الأمر إعادة تمثيل لتلك الملاحم الجهادية. علما أن التبوريدة، مشتقة من كلمة البارود، وترتبط بمناسبات لها رمزية خاصة مثل: المواسم والأعياد الفلاحية، مما يحفظ لها بعدها الروحي القوي وعمقها التاريخي في صلب مشهد رائع من الفرجة.



صورة رقم 20: لوحة فنية رائعة للفرسان في محرك التبوريدة.

93 - مولاي إبراهيم لكديم الصوصي، "مدونة دروب وحومات مدينة مراكش العتيقة: الأحياء التاريخية القديمة والحديثة: توطينها وما احتفظت به الذاكرة في شأنها"، مجلة جامعة ابن يوسف بمراكش، العدد الخامس، 2006، ص: 198.

أخيراً، تحمل الصورة شتى العناصر التي تحدث عنها، وتستحق أن تكون خاتمة، نجمل عناصرها في ثلاثة:

الأول: عمق اللوحة الذي يجسد بالصورة فنا غاية في الجمال، يرسم الحاضر المعيش ببهاء، يحيل في الوقت نفسه على ماض عميق.

الثاني: عبق التاريخ بالنظر إلى أن الفروسية كانت علامة على الجهاد، ومن الجهاد انبثقت دولة تسمى في تاريخ المغرب: دولة الأشراف السعديين.

الثالث: ثراء التراث بالنظر إلى الفارس وعدته المادية والروحية: الفرس، اللباس التقليدي ودلائل الخيرات.

التصور الصوفي في كتابة الشمائل المحمدية "ذخيرة المحتاج" لمحمد المعطى الشرقاوي أمودجا

ذ. عبد المجيد بوكاري

الخزانة الحسنية بالرباط.

من المصنفات العظام في السيرة النبوية عند أهل المغرب كتاب "ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج"، للشيخ محمد المعطى بن محمد الصالح الشرقاوي العُمري (ت. 1180هـ). وسنحاول في هذه الورقة الكشف عن بعض مضامين وأفكار هذا الكتاب، وبعض خاصيات التصور الصوفي في كتابة الشمائل المحمدية، وما يميز هذا النوع في التأليف في الشمائل عند الشرقاوي، وما هي مقاصدها. وسنركز النظر في بعض أسفار الشمائل من الكتاب المذكور.

عناية المغاربة بالشمائل

يقتضي الكلام في موضوع الشمائل المحمدية عند المغاربة التوطئة عن عنايتهم بهذا الفن، دراسة وختمًا وشرحًا وتعليقًا ونسخًا؛ ذلك أن استقراء المكتبة المغربية يؤكد هذه العناية كما تدل على ذلك بعض الآثار التي وصلت إلينا، وهذا دليل على محبتهم للنبي ﷺ، واستغراقهم في خدمته والتنويه بقدره الشريف. ونمثل لذلك ببعض المصنفات المغربية، من ذلك:

- طرر على شمائل الترمذي، لعبد الرحمن بن محمد العارف الفاسي (ت. 1036هـ)؛
- الزهر الندي في الخلق المحمدي، لمحمد بن عبد الرحمن الدلائي (ت. 1141هـ)؛
- تحفة الأخيار على شمائل النبي المختار¹، لعلي بن أحمد بن محمد الحريشي الفاسي (ت. 1143هـ)؛

- شرح الشمائل، لعبد الرحمن ابن زكري الفاسي (ت. 1144هـ)؛
- حاشية على شمائل الترمذي، لمحمد بن الطيب الشركي الفاسي (ت. 1170هـ)؛

1 - توجد منه نسختان بالخزانة الحسنية، ورقمها: 1695 - 12853.

- الفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمدية²، لأبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس (ت.1182هـ)؛

- شرح الشمائل، لأبي العلاء إدريس بن محمد العراقي (ت.1183هـ)؛

- أشرف الوسائل برجال الشمائل³، لمحمد بن الطيب بن عبد السلام القادري الحسني (ت.1187هـ)؛

- دلالة الهائم الكئيب على أطلال ربوع الحبيب، لعمر بن عبد العزيز الكرسيقي (ت.1214هـ)؛

- وسيلة الفقير المحتاج في شرح شمائل صاحب اللواء والتاج⁴، لمحمد بدر الدين بن الشاذلي بن أحمد الحسني الحمومي الفاسي (ت.1266هـ).

ومن التعليقات والتقييدات والختومات على كتاب الشمائل نذكر:

- تعليق الحمائل فيما أغفله شراح الشمائل⁵، لعبد الله بن الطاهر بن محمد بن همو الجرسيفي التازي؛

- تعليق على خاتمة الشمائل المحمدية للترمذي⁶، لمؤلف غير مذكور؛

- تقييد في شرح بعض كتاب الشمائل⁷، لمحمد بن أحمد العلوي الزرهوني الإسماعيلي؛

- ختم الشمائل المحمدية، لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن زيدان العلوي.

ثم إن سرد الشمائل عند المغاربة مثل أحد المظاهر الحضارية؛ ذلك أن كتاب الشمائل نال كذلك عناية سلاطين المغرب والأعيان وأرباب التصوف، بل وأهل المغرب إجمالا، وقد اتخذت هذه العناية مظاهر كثيرة، نلخصها في التالي:

2 - توجد منه نسخ كثيرة محفوظة بالخزانة الحسنية، مسجلة تحت الأرقام: 552 - 736 - 1131 - 1600 - 1812 - 2180 - 2287 - 2429 - 2455 - 2456 - 2891 - 3417 - 3434 - 3450 - 3837 - 3882 - 4218 - 4835 - 5134 - 5436 - 6345 - 6740 - 7276 - 7345 - 10068 - 11201 - 11630.

3 - ويعرف الكتاب كذلك بعنوان: المنهل الأصفى في سند شمائل المصطفى، توجد منه نسخة واحدة محفوظة بالخزانة الحسنية، مسجلة تحت الرقم: 1888.

4 - توجد منه نسخ كثيرة محفوظة بالخزانة الحسنية، مسجلة تحت الأرقام: 28 - 76 - 183 - 1495 - 2769 - 5034 - 9936 - 12199.

5 - توجد منه نسخة واحدة محفوظة بالخزانة الحسنية، مسجلة تحت رقم: 4440.

6 - توجد منه نسخة واحدة محفوظة بالخزانة الحسنية، مسجلة تحت رقم: 11854.

7 - توجد منه نسخة واحدة محفوظة بالخزانة الحسنية، مسجلة تحت رقم: 13738.

أ - سرّد كتاب الشمائل في مجالس العلم، وكان يحضره الأمراء والعلماء والأعيان، سواء في الجوامع الكبرى أو المدارس والمساجد؛ ويرافق حفل الختم تلاوة القصائد والأذكار، وإكرام طلبة العلم الشريف؛

ب - سرّد الشمائل في المواسم والمحافل الدينية في الزوايا؛ مما يقرر حقيقة أساسية وهي تشبع المغاربة بمحبة النبي ﷺ؛ لأن مدار أسباب المحبة على أمرين، كما قرره أهل الطريق: الحُسْنُ والإحسان؛ فالنفوس مجبولة على حُبِّ الحُسْنِ، كما أنها مجبولة على حُبِّ المُحْسِنِ إليها، ولا حُسْنَ يُمِثِّلُ حُسْنَهُ صلى الله عليه وسلم، كما لا إحسان يمثّل إحسانه صلى الله عليه وسلم؛

ج - العناية بنسخه والاحتفال به بشتى أنواع الزخارف والتحليات البديعة. وإن استقرأ الرصيد المخطوط من كتاب الشمائل المحمدية في خزائن الكتب العامة على الأقل، يعطينا صورة عن حجم تداول هذا الكتاب، وعن شغف المغاربة بهذا المتن الشريف؛ فتوجد منه نسخ كثيرة محفوظة في الخزانة الحسنية والمكتبة الوطنية بالرباط وغيرها.

ولم يكتف صوفية المغرب الأقصى باجتراح ما ألف في الشمائل، بل أبدعوا فيها وصنفوا فيها التصانيف الجليلة، وإنما تأتى لهم ذلك لفرط محبتهم في المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ ذلك أن مبنى الطريق وأساسه هو محبة النبي، صلى الله عليه وسلم، ومحبة أهل بيته الشريف كما نصت على ذلك مصنفات المغاربة. ثم إنهم اطلعوا على التراث المكتوب في السيرة والشمائل والخصائص النبوية، وما حفظته كتب الحديث والآثار عن سيرة المصطفى ﷺ.

كتابة الشمائل المحمدية في ذخيرة المحتاج

تتضمن الشمائل كل ما يجب على المسلم معرفته من خَلْقِ رسول الله ﷺ، وما حباه الله سبحانه من الخلقة الحسنة والهيئة الجميلة والوصف الحسن، وما كان ﷺ يستعمل من الزينة والكحل، وما يجب من اللباس والطعام والشراب، وما يستعمل من السلاح والدواب، وهديه ﷺ في الضحك والمزاح والنوم. كما تشمل خُلُقَ رسول ﷺ، وما اتصف به من صفات حسنة.

قال الشيخ عبد الحي الكتاني في وصف كتاب «ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج» لمحمد المعطي بن الصالح الشرقاوي: "وهي، يعني الذخيرة، من أعظم الكتب التي فاق بها المغاربة غيرهم لأنها في نيف وسبعين مجلدا من القالب الكبير... يفرغ السيرة النبوية في قالب صيغة صلاة، وكل مجلد أو أكثر من هذه المجلدات في موضوع من مواضع السيرة، فله في المعراج سبع مجلدات، وفي الحج والزيارة وأماكنها مجلدات سبعة، وفي الشمائل النبوية سبعة أسفار أيضا، وسفر في

المولد، وسفر في الوفاة النبوية، وسفر في النعال النبوية، وسفر في الأسماء النبوية، وسفر في الأعضاء النبوية، وهكذا...⁸.

جاء في إفادة الشيخ الكتاني السابقة أن عدد أسفار الشمائل النبوية سبعة، غير أن ما عثرنا عليه منها هو سفران فقط، ولا ندرى إن كان ما تبقى من أسفار الشمائل قد ضاع أو هو محفوظ في بعض الخزائن الخاصة التي ليس لنا السبيل إلى الاطلاع عليها.

في معرض حديث محمد الطالب ابن الحاج السلمي عن "علم السيرة"، قال في شأن كتاب "ذخيرة المحتاج": "ومن أبدع كتب المتأخرين من المغاربة المؤلفة في ذلك: "ذخيرة الغني والمحتاج في صاحب اللواء والتاج"، للشيخ العارف بالله، سيدي المَعْطَى بن صالح العمري الشرقاوي التادلي... في وصف ذات النبي ﷺ، وذكر سيرته ومعجزاته، وما يتصل به من ذريته وصحابته... وكل قضية يشير فيها للصلاة على النبي ﷺ، كما عند صاحب تنبيه الأنام، إلا أن صنيعه أوسع بكثير، وذلك مما يدل على مقام صاحبها، وحاله الفائق، وهديه الذي هو بكل متمكن لائق"⁹.

وحد "علم السيرة" هو: "العلم الباحث عن أيام النبي ﷺ، وأحواله من أول مبعثه إلى أن توفاه الله تعالى، فدخلت فيه المغازي والشمائل؛ إذ المراد بأيامه وقائعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾¹⁰، وبأحواله ما هو أعم من محاسن خلقه وخلقه الشريف.

وقد أدرجوا في السير أحواله ﷺ، من لدن كان حملاً، ثم ترقوا إلى ذكر والدیه وأجداده، ثم القبائل المتشعبة من ذلك، وذكر بلده الكريم، والبيت الحرام، ومن بناه ومن تولاه قديماً، ومن زاره من الملوك... وقد يزدون سيرة الخلفاء بعده، وقد يفردون لما وقع من الحروب ذكراً، وهو علم المغازي، فيقال: "علم المغازي والسير".

وقد يعتبر خصوص أحوال النبي ﷺ، في خلقته الكريمة، وأخلاقه العظيمة، ومأكله وملبسه، ونحو ذلك، وهو "علم الشمائل"¹¹. فهي على هذا الاعتبار فنون ثلاثة، ينظمها "علم السيرة".

وقد تحققت هذه المطالب في كتاب "ذخيرة المحتاج"؛ فعناوين الكتاب المتوفرة بين أيدينا يتحقق فيها الوصف الذي نجده عند من صنفوا في العلوم، فهذه بعض عناوين أسفاره كما

8 - فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والشيخات والمسلسلات، لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ/1982م، ص: 780.

9 - الأزهار الطيبة النشر فيما يتعلق ببعض العلوم من المبادئ العشر، لأبي عبد الله محمد الطالب ابن الحاج السلمي المرداسي الفاسي، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، ط. 1، 2010 م، ج. 2، ص: 394-395.

10 - سورة إبراهيم، الآية: 7.

11 - الأزهار الطيبة النشر، م. س. ج. 2، ص: 387.

استخلصناها من استقراء المجموعة المخطوطة من الكتاب¹²: شئائل النبي ﷺ، بعض محاسنه ﷺ، كتاب الصورة، القرب والوصول فيما حُصَّ به سيدنا محمد الرسول، شرف الذات المحمدية، سفر المولد، سفر الحمد والتكبير، كتاب الأذكار، فضائل الأعمال، الفتوحات الربانية بلطائف الآيات النورانية، حقيقة الطينة الآدمية المقدسة، المعراج الحسي، العرش المعنوي، أخبار بيت المقدس وأحاديث الصخرة، كتاب الطائر، مفاخرة السماوات والأرض، مدح الليل والنهار، الوصال القدسي، محراب الأرواح، مناقب الخلفاء الأربعة، مناقب الصحابة وأهل بدر، ذكر مواليه من الرجال، فضائل الأولياء والصالحين، الأسماء النبوية، سفر البحور، شجرة التوحيد، سفر العقبات (أو البساتين النبوية)، سفر العبودية، اللطائف في فوائد وطرائف، أسرار معاني بسم الله (ويسمى سفر النقطة)، سفر العدد، التشوف إلى الروضة الشريفة، زيارته ﷺ، الزيارة في سائر الأيام والشهور، أخبار المدينة المنورة، إهداء السلام إلى خير الأنام، طلب الشهادة من معالم البيت الحرام، معاني الصلاة على النبي ﷺ، الحصن في الدائرة المصطفوية، بحر عين الحقيقة محمد ﷺ، أنوار الفتح والإلهام، البهاء والنور، من عمل سبعة وعشرين، أهوال القيامة (أو أخبار الآخرة)، سفر الوفاة، المدد والإمداد.

وإن تصور الشيخ محمد المعطي بن محمد الصالح الشرقاوي بخصوص السيرة والشئائل النبوية تصور فقهي مقاصدي لهذا العلم؛ فلقد صرح في غير ما موضع من أسفار كتابه الحفيل "ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج" أن من أوجب ما يحق على كل مسلم معرفته "هو معرفة آثاره وخصائصه وشئائله... إذ بالوقوف عليها توجد حلاوة الإيمان والإسلام، ويعرف قدر هذا النبي الكريم الذي حاز المآثر الجليلة والمفاخر العظام، ويستنير قلب المؤمن ويزيد فيه الإيمان، ويسعد بذلك، إن شاء الله، سعادة لا يَشْقَى بعدها على الدوام"¹³.

فهذه المعرفة إذن تحقق مقاصد كثيرة، منها:

أولاً: معرفة قدر النبي الكريم؛ ذلك أن السعي في معرفتها خدمة لجناحه الشريف ﷺ، وثناء عليه، وتعلق به، وتعظيم قدره، وتقرب وتودد واستعطاف وانتساب، وتعرض لفتحات فضل الممدوح، واستمطار لسحاب إحسانه، واستنزال لغزير برّه وامتنانه، ومدد ليد الفاقة والاضطرار، وبسط لسياط الإلحاح والإكثار، وفتح أبواب خزائن ما يأتي من قبله؛ فإن الكرام إذا مدحوا أجزلوا

12 - وقد ضمنا أطروحتنا عن الأدب الصوفي بالزاوية الشرقاوية خلال القرن 12 هـ / 18 م، لوائح مفصلة بأسفار الكتاب الموجودة في بعض خزائن الكتب في المغرب الأقصى.

13 - شئائل النبي صلى الله عليه وسلم، للشيخ سيدي محمد المعطي الشرقاوي، تقديم وتحقيق عبد المجيد بوكاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2008 م، ص: 28.

المواهب والعطايا ... وفي ذلك أيضا تعرض لنفحات الرحمة الإلهية؛ لأنه إذا كانت رَحْمَتُهُ تعالى تَنْتَزِلُ عند ذكر الصالحين فما بالك بسيّدِهِمْ وسَنَدِهِمْ ومُجِدِّهِمْ، صلى الله عليه وسلم¹⁴.

ثانيا: تحقيق حلاوة الإيمان والإسلام؛ لأن ذكر الشهاب وسماها ضرب من ضروب الوصال به ﷺ " ووجهُ القرب منه، والاجتماع به لما فيه من إمتاع حاسة السَّمْع واللسان بأوصاف المحبوب الذي هو وسيلة إلى حضوره بالقلب؛ فإذا فاتَ النظرُ إليه بالبَصَرِ لم يَفِتِ التَّمَتُّعُ بالسَّمْعِ والنَّظَرُ إليه بالبَصِيرَةِ"¹⁵. وما أحسن قول سلطان العاشقين:

أَسْعِدْ أَخِيَّ وَغَنِّني بِحَدِيثِهِ وَاثْرُ عَلَيَّ سَمْعِي حِلَاةً وَشَنْفٍ
لَأَرَى بِعَيْنِ السَّمْعِ شَاهِدَ حُسْنِهِ مَعْنَى فَأَتَحَفَّنِي بِذَاكَ وَشَرَفٍ¹⁶

ثالثا: زيادة الإيمان في القلب؛ ذلك أن معرفة خلقه وخلقه ﷺ، يزكو بها الإيمان في قلب الذاكر والسامع، ولا تخفى أهمية ذلك في تصفية الباطن، والتخلي عن الخلق الدني، والتخلي بالخلق السني؛

رابعا: نيل السعادة، وهذا مطلب من أهم المطالب؛ فهذه المعرفة تُوجِبُ على من أنعم الله عليه "بشرف المنزلة، وأُخْرِجَ بالتأدُّبِ عَنْ طَبَقَةِ الْحُشْوَةِ، وَفُضِّلَ بِالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ عَلَى الْعَامَّةِ، أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بتعليمه، وَيُرَوِّضَهَا عَلَى تَحْفَظِهِ"¹⁷؛

خامسا: التبرك بآثاره، ﷺ؛ إذ إن التبرك بآثاره ﷺ، من قبيل "التبرك بخدمة السنة"¹⁸، كما ورد في فتح المتعال.

قال في سفر (محاسن النبي ﷺ): "ورسمنا شكله هنا تبرُّكاً به، وذخيرةً نجعلها في رحالنا ومنازلنا في الرحلة والمقام، ووقاية لأهلنا وأولادنا وأحبَّتينا من حوادث الدَّهْرِ وَسَوْرَةِ اللَّيَالِي والأَيَّامِ. نَسْأَلُ الله تعالى أَنْ يُبَلِّغَنَا بها القصد والمَرامَ، ويجعلها لنا عُدَّةً وَعُمْدَةً نَجِدُهَا يَوْمَ العَرَضِ والزَّحَامِ".

14 - الفوائد الجليلة البهية على الشهاب المحمدية، لمحمد بن قاسم جسوس، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر، 1346هـ/ 1927 م، ص. 6.

15 - الفوائد الجليلة البهية، لمحمد بن قاسم جسوس، م. س، ص. 7.

16 - البيتان من قصيدة طويلة لأبي حفص عمر بن علي، شرف الدين ابن الفارض (ت. 632 هـ)، مطلعها:

قلبي يُجَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتَلَفِي رُوحِي فِدَاكَ عَرَفْتُ أَمْ لَمْ تُعْرِفْ

ينظر: ديوان ابن الفارض، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص. 154.

17 - المعارف، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2، 1424 هـ/ 2003 م، ص: 3.

18 - فتح المتعال في مدح النعال، لأبي العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق علي عبد الوهاب، عبد المنعم فرج درويش، دار القاضي عياض للتراث، القاهرة، ط. 1، 1417 هـ/ 1997 م، ص: 34.

وهذا يعزز ما ذهب إليه المؤلف من كون هذه المعرفة واجبة على المسلم لما تحققه من أغراض في نفسه؛ ذلك أن مدارسة الشائيل والمحاسن النبوية "يحرك ما في القلوب من الحب الساكن والشوق الكامن، ويحصل من انشراح الصدر وتفريج القلب ما يناسب إجلاء تلك المحاسن. وقد يغيب المحب عن ذكر أوصاف المحبوب لا سيما إن كان القارئ حسن الصوت وكانت قراءته على وجه يثير الخشوع ويرقق القلوب... وبالغية فيه عليه السلام يتضاعف ويتجدد من الإقبال على الخير والتجلي بأنواع البر أمر غير متعارف"¹⁹.

الربط بين النور المحمدي وبين المحبة:

إن فكرة "النور المحمدي" حاضرة في كتاب "ذخيرة المحتاج" بشكل واضح بكل تفريعاتها، ونمثل لذلك عند الشيخ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ²⁰﴾، قال: "فهو نور أرباب العقول والبصائر، ونبراس أهل الكواشف والضمائر؛ فبنوره المصطفوي تتزايد الأنوار في قلوب المحييين والمحبوبين، وبذكره تفيض الأسرار في أفئدة السالكين والمجدوبين؛ فهو حمرهم إذا سكرُوا، ونور بصيرتهم إذا نظروا، وخطيب مجالسهم إذا حَضَرُوا، وطريق سيرهم إذا عَبَرُوا، ومؤلف قلوبهم إذا نَفَرُوا، والآخذ بأيديهم إذا عَثَرُوا، ومُجْزِلُ أجْرهم إذا صَبَرُوا، وحياء أرواحهم إذا عاشوا، ومُسَكِّنُ رُوعِهِمْ إذا طَاشُوا، ومُحْيِيهِمْ إذا فَنَوا، ومِرَاةُ أسرارهم إذا صَحَّوا، وسندُ حديثهم إذا رَوَوْا"²¹؛ فنراه يربط بين النور المحمدي وبين المحبة؛ وهذا في جوهره أحد أبعاد التصور الصوفي العرفاني عند محمد المعطي الشرقاوي.

المحبة والطاعة أصلا من أصول الطريق:

المحبة والطاعة يفتحان أبواب الخيرات، ويرقيان "لمناهج اليُمن والسُّعُود"؛ فلا معنى للمحبة بدون طاعة، ولا معنى للطاعة بدون محبة؛ فالحب "معانقة الطاعة، ومُبايَنَةُ المُخَالَفَةِ"²².

إن المدار في الكتابة الصوفية لا يخرج عن دائرة الحب²³، والصوفية فاضت من أرواحهم معاني الحيين: الحب الإلهي، والحب النبوي. من هذا المنطلق فإن الكتابة عند محمد المعطي إنما هي مناجاة

19 - الفوائد الجليلة البهية على الشائيل المحمدية، لمحمد بن قاسم جسوس، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر، 1346هـ/ 1927م، ص: 7.

20 - سورة الرعد، الآية: 40.

21 - فضائل القرآن من "ذخيرة المحتاج"، الورقة 121 ب.

22 - الرسالة القشيرية، ص: 321.

23 - الكتابة الصوفية في أدب التستاوتي (1045هـ - 1127م)، لأحمد الطريقي، ص. 743، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (المملكة المغربية) مطبعة إيت، الرباط، 1424هـ / 2003م.

للذات المحمدية، والتي تكتمل معها وبها تصورات الصوفية للإنسان الكامل وخصائصه النبوية. ومحبة الرسول ﷺ، هي سلم الوصول، وباب كل الفضائل والخصائل، وهي محبة المنعم المتفضل، وهذا التصور هو أحد مؤسّسات الكتابة عند سيدي محمد المعطي في سائر كتاب " ذخيرة المحتاج "، وعليه مبني طريقته ومنهجيته في التربية الصوفية.

وقد لخص سيدي عبد الكريم بن عبد السلام ابن زاكور منزلة الشيخ في هذا المقام، باعتباره رائدا في المدائح النبوية: " وأحيى به معالم المديح بعد دروسها، ونوّز بطون الدفاتر بعد اتصال عبوسها " ²⁴.

قال سيدي محمد المعطي في تفسير الآية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ²⁵: " مثل نوره الصادر من حضرة: "يُجِبُّهُمْ"، إلى مقام: "يُحِبُّونَهُ"، ومن مقام "يُحِبُّونَهُ" إلى مقام "يُحِبُّهُمْ"، وهو محمد ﷺ. وهي التي قصدها محمد المعطي الشرقاوي؛ ذلك أن مُراد المحب أن يحصل هذه المنزلة الرفيعة، وأن يتحقق بمعاني هذا المقام؛ فالداخل فيه ملزم بالتقيد بمراسمه.

ويعزز هذه الفكرة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ ²⁶ بقوله: " أو تقول: يمحو الله من قلوب أهل محبة حبيبهِ ما يُكَدِّرُهَا مِنَ الرِّعُونَاتِ وَالْفِعْلِ الرَّدِيِّ، وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ مِنَ التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ، وَالِاتِّصَافِ بِوَصْفِهِ الْجَمِيلِ الْمَحْمَدِيِّ " ²⁷.

قال أبو عثمان الحيري ²⁸: " مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ " ²⁹ ³⁰.

مفهوم المدح عند محمد المعطي الشرقاوي:

المادح عند محمد المعطي الشرقاوي أحد اثنين: إما سعيد، وإما محروم:

24 - السراج الوهاج في مدح صاحب اللواء والتاج، لعبد الكريم بن عبد السلام ابن زاكور، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 2356، ورقة 3 أ.

25 - سورة النور، الآية: 35.

26 - سورة الرعد، الآية: 40.

27 - فضائل القرآن من " ذخيرة المحتاج "، لمحمد المعطي بن الصالح الشرقاوي، نسخة خاصة، الورقة 121 ب.

28 - هو سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الأستاذ، أبو عثمان الحيريّ النيسابوري، ولد سنة ثلاث ومائتين بالريّ. ترجمه في: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لمحمد بن أحمد الذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ج. 6، ص: 944-947.

29 - سورة النور، الآية: 52.

30- تاريخ الإسلام، م. س. ج. 6، ص: 945.

فالسعيد من جعل مدحه وثنائه لذات المصطفى ﷺ، " فإنه لا نافع عند الله يوم القيامة إلا مدحُه وخدمته "، أما المحروم فهو مَنْ يضعُ لسانه في أمداح ما لا يعنيه، ويُفرغُ همته فيما يعود عليه بالوبال في تلك الدار ويُعنيه.

إن مقصدية الكتابة عند الشرقاوي هي تحصيل درجة المحبة؛ ذلك أن الذاكر، أو المنخرط في التعبد والتقرب، يحصل درجة المحبوبة، والكتب في ديوان المحبوبين، وهي مرتبة عبر عنها في ثانيا الكتاب، وصرح بذلك في مناسبات كثيرة: ومن ذلك هذا التوسل اللطيف: " وازرع في قلوبنا حبك وحب نبك سيدنا محمد ﷺ، وحب من يحبك، وحب من يتسبب إليك، وحب من يدل عليك، وحب المحبوبين من عبادك، وحب المخصوصين من أفرادك، وحب المقربين من أوتادك، وحب المخلصين الداعين إلى طريق رشادك، وحب الأقطاب المتصرفين في أقطارك وبلادك، وحب المنتسبين إلى جنابك، وحب المتعلقين بأسبابك، وحب السؤال الواقفين بأبوابك، وحب الحامدين الراغبين في تحصيل ثوابك، وألحقنا اللهم بهم، واحشرونا في زميرهم، ولا تخالف بنا عن نهجهم القويم وسنتهم، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين " ³¹.

ثم إن الاشتغال بخدمة النبي ﷺ، من الوسائل التي ترفع المناصب، " وتوصل إلى نيل الأمل وبلوغ المقصود "، ولا تعني هذه الخدمة عند محمد المعطي إلا الاشتغال بمدحه، وقد عبر عن ذلك في مواضع كثيرة من " ذخيرة المحتاج "، وما الكتاب المذكور وأسفاره الحسان إلا تجل لهذه المحبة التي سكنت كل هذا العارف العاشق، الساعي في مرضاة حبيبه، المبهور بجمال الحضرة المحمدية، المفتون بكمال القبضة الأحمديّة.

مفهوم الجمال في كتابة الشرائع:

لا نفهم عمق هذا المسلك الصوفي في كتابة السيرة والسرائر المحمدية عند الشرقاوي دون أن نربطه بمفهومه للجمال، حيث أنزله من مفهومه الفلسفي إلى مفهومه العملي الأخلاقي، ويمكن تلخيص هذا المسلك في نقطتين:

أ- ربط الجمال بالهدي النبوي؛ وهذا تقريب لقيمة الجمال، التي ظلت غامضة في كتب من ردّها من الصوفية، بيد أن محمد المعطي الشرقاوي، استطاع أن يقربها إلى الأفهام بإعطائها مدلولاً عملياً، لما جعل الجمال سوى الاهتداء بهدي محمد ﷺ، والعمل بمقتضى سنته. وإن شئت قلت: الجمال هو: اتباع رسول الله ﷺ، في الأوامر والنواهي.

31 - كتاب الصورة، لمحمد المعطي بن الصالح الشرقاوي، تحقيق عبد المجيد بوكاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2011 م، ص: 50.

وقد عبر المؤلف عن هذا المعنى في مواضع كثيرة من الكتاب مما يؤكد أنها أصل أساس من أصول الطريق؛ ففي إحدى افتتاحياته المادحة في السفر الأول من شمائل النبي ﷺ قرّر هذا المطلب، وبين ثمرته ومنتهاه، قال: "زَيْنُ الزَّيْنِ الَّذِي مَجَّدَهُ فَخِيمٌ، وَعِزُّهُ قَدِيمٌ، وَوُدُّهُ حَمِيمٌ، وَهُدْيُهُ قَوِيمٌ، وَقَرَّةُ الْعَيْنِ الَّذِي فَضَّلَهُ عَظِيمٌ، وَخَيْرُهُ عَمِيمٌ، وَخُلُقُهُ كَرِيمٌ، وَصِرَاطُهُ مُسْتَقِيمٌ، وَسَيِّدُ الْكُونَيْنِ الَّذِي هَدَايَتُهُ صِلَاحٌ، وَاتِّبَاعُهُ فَلَاحٌ، وَمِنْهَاجُهُ نَجَاحٌ، وَمَحَبَّتُهُ رِبَاحٌ، وَالْعَمَلُ بِمَقْتَضَى سُنَّتِهِ يُوصلُ إِلَى رِضَا مَوْلَانَا السَّمِيعِ الْعَلِيمِ"³².

ب - ربط الجمال بالخير الإلهي، وإن شئت قلت: ربطه بالنعمة الإلهية، حيث نجده عن طريق الإشارة إلى وجوب تمثل المسلم/ المرید لصفة الجمال، من حيث إن هذا التمثيل هو عمل بمقتضى الحديث النبوي: "إن الله جميل ويحب الجمال"؛ فإذا كان من صفاته تعالى الجمال، فإن المؤمن يكون قد اتصف بهذه الصفة، وتخلق بخلق من أخلاق الله تعالى عندما يشكر المنعم على النعمة. ومن أبرز تجليات شكر النعمة شكر المنعم على نعمته، والاعتراف بما أفاض عليه من الخير. ولا جرم أن مجلّي الخير على الإطلاق، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد جمع هذه المعاني اللطيفة في لوحة بديعة في السفر الأول من شمائل النبي ﷺ، عليها مدار التصور الصوفي للمصطفى ﷺ، الذي ساق الله على يديه إلى هذه الأمة الفضائل الحسية والمعنوية: "زين الزين الطاهر الخلق والشيم، وقرة العين العلي القدر والشيم، وإنسان عين الطيب المبدإ والمختتم، وجد الحسن والحسين، الموصوف بالعلم والحلم والجود والكرم، ونور سواد المقلتين، المفضل على الأنبياء والرسل والملائكة المقربين وسائر العرب والعجم، وسلطان المملكة الربانية، الذي أثبت عليه نصا في سالف القدم، وجلوت بنور بعثته حنادس الظلم والظلام، وحفظت بسر حكيمته العهود والمواثيق والذمم، وعظمت بجاهه المحمدي شعائر الإسلام وسائر الحكم، ودفعت بعنايته معظم الشدائد وجميع الأسواء والنقم، وأجريت على يديه مواهب الخيرات وسوابغ النعم، وأفضت ببركاته على القلوب أسرار المعارف والمواهب والحكم، وطببت بطيبه الروائح والأزهار، وأحييت بمدد إمداداته القلوب والأرواح والنسم، وأخرجت بنوره الأحمدى كليات الكون من ظلمة الجهل والعمى والعدم، وفضلت أمته الكريمة على سائر الأنواع وأجناس وجميع الأمم، وعظمت مزيتة في سورة الحجر ون والقلم بفضيلة القسم"³³.

32 - شمائل النبي صلى الله عليه وسلم (1)، لمحمد المعطي بن الصالح الشرقاوي، تحقيق عبد المجيد بوكاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2008 م، ص: 42.

33 - شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، لمحمد المعطي بن الصالح الشرقاوي، تحقيق عبد المجيد بوكاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2009 م، ص: 29.

ولقد شحن محمد المعطي مجموعة الشمائل من ذخيرة المحتاج بهذه المعاني اللطيفة التي أظهرت من جهة روائح المحبة التي تعبق بها عبارات المؤلف، ومن جهة أخرى أسفرت عن معرفة كبيرة بالسيرة والشمائل المحمدية، ونقتطف بعض اللوحات من السَّفَرِ الأول من شمائل النبي ﷺ.

من ذلك هذه اللوحة المادحة التي تصف جمال الحضرة المحمدية، يقول بعد الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ: "زين الزين الذي تاهت في محاسنه الخواطر والفكر، وقُرَّةُ الْعَيْنِ الذي افْتَحَرَتْ بولادته بنو هاشم ومُضِر، ومُذْهَب وَحْشَةِ الْفَقْرِ وَالْبَيْنِ المبشر من آمن به بالفوز والسعادة ونيل الوطر، وكامل المحاسن الذي إذا افْتَرَّ ضاحكا كأن ثَغْرَهُ حَبٌّ غَمَامٍ أَوْ عَقْدٌ دُرٌّ انْتَشَرَ"³⁴.

ويتبع الشرقاوي مظاهر الجمال المحمدي كما حصَّلها من مصنفات الحديث الشريف والآثار والسير والشمائل؛ فهو ﷺ، المتخلق بأكمل المحاسن وجميل الأوصاف. ومن صور ذلك الجمال الظاهر والباطن، وقد لَفَّها الشرقاوي في إهابٍ بديعٍ، قوله: "زين الزين التقي النقي الطاهر، وقرة العين المنور الباطن والظاهر، أَرْجُ الْحَاجِّينِ، المخصوص بالحسن الكامل والجمال الباهر، وابن الذبيحين الذي أكرمه باللسان الشاكر والقلب الصابر، ومنحته الحنانة والشفقة فَجَرَّ ذَيْلَ حِلْمِهِ على سائر الأكوان وَنَشَرَ"³⁵.

وتسمو اللغة عند الشرقاوي في أسفار شمائل المصطفى ﷺ، وفي أسفار «ذخيرة المحتاج»، سمو قَدْرِهِ الفخيم عند الشرقاوي؛ فالمقام مقام جمال وجلال، وصاحب الشريعة مَجْمَعُ الكمال، فلا بد للغة أن ترتقي في هذه الحضرات، فمقام الخطاب سام.

وتتوزع اللغة في سرد الشمائل وفق نظام فريد تحكمه أوقات الصوفي وأحواله؛ فيتحكم فيها القبض والبسط، فتضييق وتوسع؛ بما هي تحكي انفعال الوجود في سمفونية ساحرة تحكي احتفال المحبين في حضرة المصطفى ﷺ، وتسرد قصة الخلق، واستواء الخلق، فلا شيء في الوجود يشاكل خَلْقَتَهُ، ولا أحد يماثله في خُلُقِهِ وأوصافه الحسان. يقول في إحدى وحدات السفر الأول من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم:

"طَلَعَتْهُ شَمْسٌ وَقَمَرٌ، وَمَنْظَرُهُ وَرْدٌ وَزَهْرٌ، وَنَكْهَتُهُ مِسْكٌ وَعَنْبَرٌ، وَرُضَابُهُ عَسَلٌ وَسُكَّرٌ، مَا فِي الْوُجُوهِ الصَّبَاحُ أَجْمَلُ مِنْ طُرَّةِ جَبِينِهِ الْأَقْمَرِ، وَلَا فِي الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَاتِ أَشْرَفُ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ الْأَعْرَ، فَغُرَّتُهُ الْمُحَمَّدِيَّةُ أَجْمَلُ وَأَبْهَى مِنْ جَمَالِ يُوسُفَ الْأَبْهَرِ، وَبَهْجَةُ جَسَدِهِ أَنْوَرُ مِنْ ضِيَاءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

34 - شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، لمحمد المعطي بن الصالح الشرقاوي، م. س. ص: 38.

35 - شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، لمحمد المعطي بن الصالح الشرقاوي، م. س. ص: 38.

الأنور، ورائحة أروانه أطيب من رائحة المسك الأذفر والزهر الأريج والعوال والعنبر، ووجنة خده أنضر من نصارة الياسمين والنسرين والورد الأحمر، ولعاب فيه أحلى من الشهد والعسل والسكر، وسلسيل الماء الذي نبع من أصابعه أعذب من النيل والفرات والكوثر، ولثم غبار نعاله أنفع من علاج الطيب الأذفر، وأشفى من الرقي والترياق الأكبر، وتمايل خده في خطرات القرب أرشف من قضيب البان والخيزران والغصن الأنضر، وحسن أسارير جبهته في صدور المجالس أبهج من سنى المشتري والزهرة ونور القمر، وشمس شريعته المحمدية لا يسترها غيم ولا يعثرها كسوف ولا كدر، وقمر دينه الأحدي لا يطرأ عليه خسوف ولا أفول ولا غيره، ورفعة مكانته المخصوصة به لم يدركها جن ولا ملك ولا بشر³⁶.

مقاصد الدعاء عند الشرقاوي: أو التمثل والتحقق بالخلق النبوي:

الدعاء مكون أساسي في الكتابة الصوفية، فلم يعد متن الشئائل مجرد سرد لفضائل وفواضل المصطفى ﷺ، بل أصبحت هذه الكتابة "كتابة مفضية"؛ بمعنى أنها أصبحت عاكسة لمكونات المتقرب/الكاتب، ضامة لحاجاته وحاجات جماعته؛ والاحترام بالرسول ﷺ، قدوة المريدين، فلم يقف التوسل الشرقاوي عند مجرد الدعاء، وإنما التوسل عنده جزء من تخليق الصوفي؛ أي كيف يصبح النص التوسلي عتبة لفهم أخلاق الصوفي.

ونمثل لذلك باقتطاف من هذا السفر تتأكد من خلاله الحاجة إلى التوسل كتمثيل لأخلاق الصوفي: "اللهم وأسألك يا عزيز، المانع الغالب على أمره فلا شيء يعادله، يا واحد، المتقدس في جبروته فلا شيء من خلقه يماثله، بحرمة حبيبك سيدنا محمد ﷺ، الذي أفردته في حسنه ومحاسنه فلا أحد من خلقك يضاهيه ويشاكله، وملأت قلبه من خشيتك فلا يفارقه خوفك دائما ولا يزياله، بحرمة جاهه العظيم وشرف ذكره، وجلالة منصبه الفخيم وعلو قدره، وعزة جنابه الكريم وكمال فخره أن تعتق ظهري بحرمة ظهره المعصوم الموفق للطاعة في علانيته وسره، المستقيم المطيع لمولاه في حركاته وسكناته وامتنال أمره الذي جعلته قبلة للملائكة العظام والرسل الكرام، وأكرمتهم بالإقتداء به واغتنام بركته وأجره، وتجعلني ممن اقتدى بهديه وسيرته، وسعد برويته وكمال نظرتي، وتحرق علائق شهواتي بنور محبته، وتطرد هواجس هفواتي بسر علومه وأنوار معرفته، وتحفظ جوارحي من الخطأ بتائم توفيقه وكمال عصمته، وتمن علي بروية وجهه، وتحققني بحقائق نسبته، وتجعل هيكلي محلا لشوارق أنواره، ورأسي عرشا لاستواء رحمته ونتائج أفكاره، وعيني حراسا

36 - شئائل النبي صلى الله عليه وسلم، لمحمد المعطي بن الصالح الشرقاوي، م. س. ص: 42 - 43.

لمطالع شُموسه العرفانيّة وأقماره، ومسامعي جواسيس على سماع أحاديثه الشريفة وأخباره، ولساني آلة لنشر جواهر أمّداحه الأحمديّة ولطائف أذكّاره، وصُدري خزانة لمواهب علومه اللدنية وأسراره، وقلبي بُستاناً لوارداته المحمدية ونواسم أزهاره، وبطني أرضاً لمهَب نفحاته الرحوتية ومَصَب أمطاره، ويديّ سَدَنَة لخدمة مقامه الشريف ومُتعلّقين بأستاره، ورجليّ مَطِيتين لتبليغ رسائي إلى بقاعه المنوّرة وأقطاره. وأبرد اللهم حرارة شوقي بثلج وُصوله وإقباله، واشف غليلي بنظرة وجهه وطلعة هلاله، واجبر أحوالي بسماع حديثه ولذيق مقالته، وانقلني من وحشة البين وحرّ الجفا إلى رياض أنسه وظلاله، وبهّج وجهي بين المحبين بلوائح بشائره ونور جماله، وغيب حواسي الظاهرة والباطنة في محاسن ذاته وأوصاف كماله، وطوق جيدي بيوقيت معرفته ولائيء تعظيمه وإجلاله. وأجر اللهم في زوايا قلبي جداول سرّه وفيض نواله كما أجرين الماء في غصون الأوراق، وفؤادي من مدد محبته وكؤوس جرياله، وأينع بغيثه النبوي ثمار إيماني، وأحي بجوده الرحاني رياض جناني وحدائق بُستاني، وأسفر لي بنور معرفته عن وجوه السرور والتّهاني، واكشف لي بسرّ عنايته عن رقائق المعاني وأصول المباني، واجعل لي نوره المحمّدي سراجاً أفقده في سلوكي ومسراي، وسرّه المصطفوي مفتاحاً لكل خير أرضده في ديني ودنيائي".

من هذا المنطلق ينبغي الوقوف عند النص التوسلي باعتباره مرصداً لتبين حقيقة المتقرب الذي ينزع إلى تمثّل الخلق النبوي باعتباره النموذج لكل سالك متقرب، هذا فضلاً عما يتيح النص التوسلي من إمكانيات لتسديد عمل الذاكر، من هنا نتصور عمل الصوفي المربي كطبيب للأدواء الروحية، وهذا هو جوهر عمله كراع للأخلاق، وبالتالي لا يمكن أن نفصل هذه الكتابة عن مشروعه التخليقي.

خاتمة:

حاولنا في هذا المقال بيان بعض معالم التصور الصوفي في كتابة الشائل عند الشيخ محمد المعطي بن الصالح الشرقاوي من خلال بعض أسفار «ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج»، وخلصنا إلى ما يلي:

أ - فرادة هذا التأليف عند محمد المعطي الشرقاوي؛ فمسلكه فريد في كتابة الشائل، إذ يمزج في تأليفه بين معرفة الشائل وبين التعبد، وهو مسلك لم نجد له مثيلاً فيما ألفه المغاربة؛

ب - أن الشرقاوي كان يتمتع من حصيلة المكتبة الإسلامية خاصة ما ألف في السيرة والشئائل والخصائص، فقد كانت مكتبته تضم نوادر ما ألف في هذه الفنون، سواء منها ما ألفه المشاركة أم المغاربة، فقد جمع عند شروعه في تأليف الكتاب نفائس المصنفات؛ يقول العبدوني: " ففتح الله عليه زمن تأليفه في جمع كتب جلييلة في ذلك المعنى، رائقة الأسلوب والمبنى، من كتب المشاركة والمغاربة... منهم: (مسالك الحنفا) للقسطلاني، و(منهاج الفلاح) لابن سعد، و(تنبيه الأنام) لابن عظم، و(دلائل الخيرات) للجزولي، و(الفجر المنير) للفاكهاني، و(القول البديع) للسخاوي، و(المنهاج) لابن منديل ... وكتب أخرى لم تحضرنى أسماؤها، وكذلك الدواوين في مدح النبي ﷺ ... " 37.

ج - من الأفكار الحاكمة في تصور الشرقاوي للمدائح النبوية كون المادح له لا يدرك حقيقة هذا النبي الكريم ﷺ، وإن بالغ في الثناء والتمثيل والتشبيه، وحاول إدراك بعض البعض من معانيه عن طريق البلاغة والتنبية، فغايته العجز والتقصير، فكلما طال الثناء فيه فليس بإطناب، قال الشرقاوي: " وإذا كان لا يقدر على وصف ظاهره، فكيف يصف باطنه، وكيف يوصف من عجزت عن إدراكه الفهوم والعقول، أم يدرك من هو فرد في التقريب والوصول، وليس له ثان ولا مدان من ملك ولا رسول".

ونأمل أن يجود الزمان بباقي أسفار الشئائل من «ذخيرة المحتاج» عسى أن تكتمل عناصر التصور الصوفي في كتابة الشئائل عند الشيخ محمد المعطي بن الصالح الشرقاوي.

37 - يتيمة العقود الوسطى في مناقب أبي عبد الله سيدي محمد المعطي، لمحمد بن عبد الكريم العبدوني، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية، رقم 305 ك، ص. 16 - 17.

ديوان العدد

بوح لخير الورى

شعر: ذ. سفيان أشساس - مكناس.

ولا الدموع الذي يكفي لأبكيه
كأنه... بل سرابٌ مَوغِلٌ فيه
لعلني... ليتني... تيه على تيه
لو كنت خادمه أسعى لأرضيه
لو كنتُ ممن بنور الوحي ترقيه
خير الأنام ومن كنت تُحييه
رؤوسهم.. ليتني من كنت تسقيه
إجازةً منك أضحت تلك تُنجيه
حضرت، شعراً بديعاً في معانيه
إلا اشتياقٌ إذا ما هبَّ يُسليه
بقصد ذكركم لم تبدُ من فيهي
من ذا أكون أنا حتى لأذكركم
فلم أجد غير هذا الشعر يحويه
في أسفل دون ذكرٍ منك يُعليه
أطيق صبراً على ما في أخفيه
ألفيت دَمْعِي على خدي يناعيه
حبيب ربّي كفى... والله يكفيه
فقط بقلبي حُبٌ رمت أبديه

مالي من الشعر ما يكفي لأكتبه
ما في خيالي تشبيه أقول به
مالي سوى أمنيات لا أضيّعها
للناس أمنيةً طبعاً وأمنيّتي
يا سيدي يا رسول الله أمنيّتي
أو كنتُ ممن أتوا في السابقين ومن
يا سيدي ليتني ممن مسحت على
وليتني "كعب" إذا نالت قصيدته
وليت لي منبراً أشدو عليه، إذا
يا سيدي القلب في ضيق وليس له
يا سيدي كلما هيأت قافية
!! وما يكون قصيدي.. ما قوافيه !!
أنا فؤادٌ بحبٍ فاض آخره
يا سيدي.. مُذنبٌ يخشى نهايته
يا سيدي ما استطعت الصمت بعد ولا
لما هممت بتدوين لقافيتي
لو لم يكن بفؤادي غير حبك يا
ما المدح أبغي بهذا الشعر أطله

ولا القصيد الذي يكفي لأهديه
هذا القلبي إذا أرويه يرويه
يَدْنُو الْحَبِيبُ بِقَرَبٍ مِنْ مُحَبِّهِ
شعر الخير الوري حبا يزكّيه
فضل في خافقي ما لا أجليه
قد جل في وصفه عن كل تشييه

مالي من الدمع ما يكفي لأبكيكم
حسبي الذي أسبلت عيني فطهرها
كذلك حسبي أن الله يكفل أن
وصل يا رب ما فاضت جوارحنا
على الذي لم أجد مدحا يليق به
على شفيع الوري، خير البرية مَنْ

اسمه أحمد يا بشراي

شعر: د. عبد اللطيف الراس - فاس

وبشرنا عيسى بمن هو أحمد
 لطلعته بشراي هذا محمد
 لمولده حب خديم مسهد
 بأنك شوقي حين أخلو وأعبد
 به شغفا حلم لديك فرائد
 كحمدك لله سبيلك أوحد
 رأى الصّحب آيات بيان تفرد
 على الدّين أفواجا وركبك أعتد
 قريض مداك الرحب بحر ممد
 ثنائي وعي منطقتي متردد
 وأنت الذي في الكائنات مخلد
 فحسبك أنت المصطفى والمؤيد
 ب أثنى كتاب منزل ومجد
 ولولاك هيم في الضلالة نقعد
 لمن خشى الرحمان ظل وموعد
 ومكة في الدنيا دعاء تشهد
 أجل ولد المحمود هذا مؤكد
 نساء الدنّى هذا النبي الموحّد
 وأموالنا فيض سكوب ومورد
 تصلى عليه ذاك شأن وسؤدد

وحين قرأت الآي أتلو وأسجد
 أبشراي إني أجتلي أي مشرق
 تعجلته عمرا ودهرا كأنني
 ويشهد ربي من حنين وصوة
 أنا من تملي فيك خلقا وزادني
 أفي أحد صليت حمدا أفي الورى
 خشعت تصلي جالسا حيث يومها
 وتصفح يوم الفتح صفحا ليقبلوا
 أغلل آمالي فيا ليت ينصفني الـ
 أثني وقد أثنى الإله تعذر
 وأنت الذي في الكائنات تذكر
 وقد رفع الرحمان ذكرك عاليا
 على خلق أزكى عظيم به الكتا
 مسحت عن الأبصار منا غشاوة
 ولولاك ما تلك الجنان معدة
 لمولدك حن الكون أقبل كله
 تردده الكائنات والصخر والصّدى
 كإبنة وهب لم تلدن النساء يا
 أحب إلينا من بنينا وأهلنا
 نصلى عليه والملائك قبلنا

فأعظم بها في الذاكرين تجدد
على جرف هار ومسعاي أعقد
غروري بها الدنيا فما عدت أعهد
نصحت لنا والنصح هدي وأرشد

بها أمر الرحمان جل جلاله
فيا سيدي قد مسني الضرّ إنني
سلكت سبيل الغافلين أضلّني
ولو كنت هيّابا جعلتك قدوتي

فهرس العدد:

افتتاحية 5

ملف العدد

- الشمائل المحمدية: دراسة منهجية وتحليلات عملية
- ذ. إدريس الخرشافي (كلية الشريعة بفاس) 9
- فقه الشمائل من خلال كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي أبي الفضل عياض
اليحصبي السبتي رحمه الله (ت 544هـ)
- ذ. عبد العزيز ديدي (كلية الآداب - مكناس) 23
- إضاءات من مشكاة الشمائل المحمدية من خلال "الشفاء" لعياض و"المحرر الوجيز"
لابن عطية
- ذ. عبد الهادي البياض (جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس) 37
- التكوين الروحي في السنة النبوية: الأسس والمناهج
- ذة. خديجة بوسبع (بني ملال) 63
- الشمائل المحمدية في الكتابات الأندلسية والمغربية
- ذ. سعيد بنحمادة (المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
بمكناس) 81
- الشمائل النبوية بين الموريسكيين (الأندلسيين المتأخرين)
- ذة. فريدة بنعزوز (كلية الآداب - تطوان) 95

مقالات داعمة

- على هامش سيرة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، صاحب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار
في الصلاة على النبي المختار: تاريخ وتراث

ذ. أحمد الوارث (كلية الآداب - الجديدة) 111

- التصور الصوفي في كتابة الشمائل المحمدية: (ذخيرة المحتاج) لمحمد المعطى الشرقاوي أنموذجا

ذ. عبد المجيد بوكاري (الخزانة الحسنية - الرباط) 137

ديوان العدد

- بوح خير الوري

شعر ذ. سفيان أشساس (مكناس) 153

- اسمه أحمد يا بشراي

شعر ذ. عبد اللطيف الراس (فاس) 155

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

■ أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.

■ أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.

■ ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.

■ في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.

■ في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.

■ تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.

■ ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.

■ البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com

■ ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

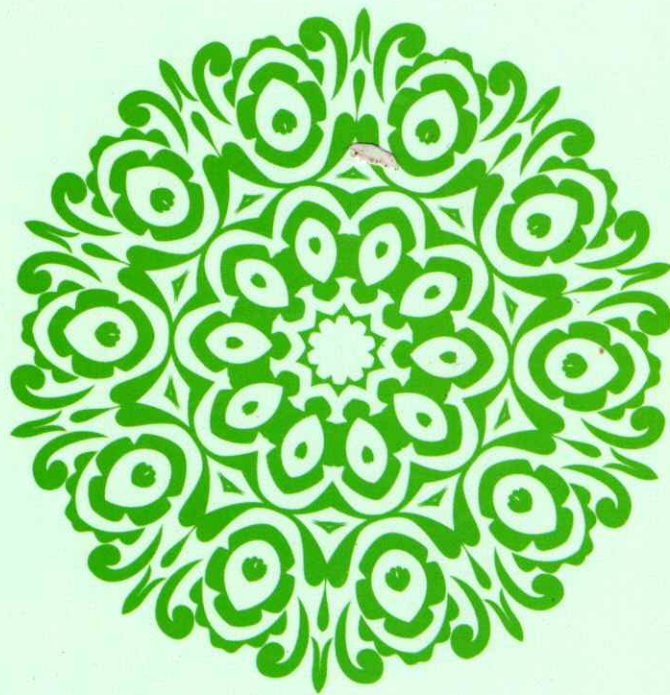
■ الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.

■ ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

ملف العدد المقبل:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في الموضوع الآتي:
- المقاصد الشرعية لدى علماء المالكية.





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية